اللؤلؤة السوداء

السنابل

المغامرات المثيرة

ARAB COMICS
عرب كوميكس
www.arabcomics.net

Copyright © 2015 Cengage Learning, Inc.

© الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي - الجيزة

جميع الحقوق محفوظة : لايجوز نشر أى جزء من هذا الكتاب ، أو تخزينه ، أو تسجيله بأية وسيلة ، أو تصويره دون موافقة خطية من الناشر .

الطبعة الثانية
رقم الإيداع : ٢٢٩٧ / ٨٨
الترقيم الدولى : ISBN ٩٧٧-١٤٤٥-٥٥-٢

طبع بمطابع دار المعارف - القاهرة

اللؤلؤة السوداء

المغامرات المثيرة

تأليف : سكوت أوديل
إعداد : محمود عبد العليم حسان
رسوم : علاء الدين سعد

مكتبة لبنان
بيروت

الفصل الأول

شيطان البحر

كُلُّ سُكَّانِ مَدينةِ لاباز المِكْسيكيَّةِ ، وَكُلُّ المُقيمينَ عَلى ساحِلِ شِبْهِ جَزيرةِ كاليفورْنيا أَوْ في جِبالِها بِالمِكْسيك (بِأَمْريكا الشَّماليَّةِ) ، سَمِعوا عَنْ مانْتا دِيابْلو أَوْ شَيْطانِ البَحْرِ – تِلْكَ السَّمَكةِ الرَّهيبةِ ! بَلْ إِنَّ كَثيرينَ مِنْ سُكَّانِ العالَمِ الخارِجيِّ سَمِعوا عَنْهُ أَيْضًا ؛ وَهٰذا ما عَلِمْتُهُ مِنَ الزُّوَّارِ الوافِدينَ عَلى المَدينةِ . وَمَعَ ذٰلِكَ فَمِنْ بَيْنِ كُلِّ هٰؤلاءِ النَّاسِ لَمْ يَرَهُ سِوى اثْنَيْنِ فَقَطْ ، أَحَدُهُما عَلى قَيْدِ الحَياةِ ، وَهُوَ أَنا : رامون سالازار .

يَدَّعي الكَثيرونَ مِنْ أَهالي لاباز وَشِبْهِ جَزيرةِ كاليفورْنيا أَنَّهُمْ شاهَدُوهُ بِأَنْفُسِهِمْ . وَعِنْدَما يَهْبِطُ اللَّيْلُ يَجْلِسُ المُسِنُّونَ حَوْلَ النّارِ يَرْوُونَ لِأَحْفادِهِمُ القِصَصَ عَنْ لِقاءاتِهِمْ بِهِ ، وَتَسْمَعُ الأُمَّهاتِ يُهَدِّدْنَ أَطْفالَهُنَّ بِاسْتِدْعائِهِ إِذا هُمْ لَمْ يَسْتَجيبوا لَهُنَّ .

لَقَدْ بَلَغْتُ الآنَ السّادِسةَ عَشْرَةَ ، وَلٰكِنَّني ما زِلْتُ أَذْكُرُ كَلِماتِ والِدَتي لي عَنْ شَيْطانِ البَحْرِ الَّذي يَفوقُ حَجْمُهُ حَجْمَ أَضْخَمِ سَفينةٍ في خَليجِ لاباز ، والَّذي لَهُ سَبْعُ أَعْيُنٍ صَفْراءَ ، وَسَبْعَةُ صُفوفٍ مِنَ الأَسْنانِ الحادَّةِ كَالسِّكّينِ والَّتي يَسْتَطيعُ بِها سَحْقَ عِظامي كَما تُسْحَقُ العِصِيُّ .

وَكانَتْ أُمَّهاتُ أَصْدِقائي يَرْوينَ لَهُمْ ماذا يُمْكِنُهُ أَنْ يَفْعَلَهُ بِهِمْ إِنْ لَمْ يَمْتَثِلوا لِتَعْليماتِهِنَّ ، بِالرَّغْمِ مِنْ تَضارُبِ رِواياتِهِنَّ عَنْ عَدَدِ أَسْنانِهِ وَأَعْيُنِهِ .

عِنْدَما كانَتْ أُمّي تُحَدِّثُني عَنْ شَيْطانِ ٱلبَحْرِ كُنْتُ أَشْعُرُ بِقُشَعْرِيرةٍ تَسْري في جَسَدي ٱلصَّغيرِ ، ويَقِفُ شَعْرُ رَأْسي مِنَ ٱلخَوفِ . ومع ذٰلك كُنْتُ أَوَدُّ أَنْ أَراهُ وأَعُدَّ أَسْنانَهُ وأَعْيُنَهُ حتّى أَقِفَ عَلى حَقيقةِ أَمْرِهِ بَعْدَ أَنْ تَضارَبَتِ ٱلحِكاياتُ عَنْهُ .

قالَ جَدّي إِنَّهُ شاهَدَ شَيْطانَ ٱلبَحْرِ هٰذا بِعَيْني رأْسِهِ عِدَّةَ مَرّاتٍ ، ولٰكِنَّهُ ، كَغَيْرِهِ مِنَ ٱلنّاسِ ، وَرَغْمَ سَعَةِ عِلْمِهِ واطِّلاعِهِ ، لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُعْطِيَني صُورةً صادِقةً لَهُ .

وَنُقِلَ عَنِ ٱلعَمِّ لينارِس ٱلَّذي ماتَ مُنْذُ زَمَنٍ أَنَّهُ قالَ : « شاهَدْتُ شَيْطانَ ٱلبَحْرِ ٱلضَّخْمَ هٰذا يَجولُ في ٱلحُقولِ ويُحْرِقُ ٱلنَّباتَ في كُلِّ بُقْعةٍ حَلَّ بِها ، فَدَعَوْتُ ٱللهَ أَنْ يَعودَ هٰذا ٱلشَّيْطانُ إِلى ٱلبَحْرِ وَلا يَبْرَحَهُ ، وَٱسْتَجابَ ٱللهُ لِدُعائي . »

ولَا أَعْلَمُ إِنْ كانَ ٱلعَمُّ لينارِس قَدْ شاهَدَهُ ثانيةً أَمْ لا ، وَلٰكِنَّ ٱلَّذي أَعْلَمُهُ أَنَّ شَيْطانَ ٱلبَحْرِ تَغَيَّرَ أَثْناءَ حَياتِهِ في ٱلبَحْرِ ، وأَصْبَحَ مِنْ أَجْمَلِ ٱلكائِناتِ ٱلحَيَّةِ ٱلَّتي رَأَيْتُها . نَعَمْ مِنْ أَجْمَلِ ٱلكائِناتِ ! ولٰكِنَّهُ ظَلَّ شِرِّيرًا كَما كانَ عِنْدَما رَآهُ ٱلعَمُّ لينارِس مُنْذُ مِئةِ سَنةٍ .

مَرَّتِ ٱلسَّنَواتُ وَتَحَقَّقَ ٱلحُلْمُ ، وَشاهَدْتُ بِنَفْسي شَيْطانَ ٱلبَحْرِ ٱلَّذي شَكَكْتُ في وُجودِهِ ، بَلْ وخُضْتُ مَعَهُ مَعْرَكةً عَنيفةً أَنا وغاسْبَر رُويز .

وَقَبْلَ أَنْ أَحْكِيَ لَكُمْ قِصَّتي مَعَ هٰذا ٱلشَّيْطانِ ، سَأَرْوي لَكُمْ أَوَّلًا قِصَّةَ لُؤْلُؤَةِ ٱلسَّماءِ .

ٱلفَصْلُ ٱلثّاني

كَيْفَ أَصْبَحْتُ شَريكًا

يَعيشُ ٱلمَحارُ عَلى ٱلصُّخورِ في قاعِ ٱلبَحْرِ ، حاوِيًا بِداخِلِهِ ٱللُّؤْلُؤَ ، وَهِيَ حَبّاتٌ جَميلةٌ كُرَوِيَّةُ ٱلشَّكْلِ . وَلِلْحُصولِ عَلَيْها يَغُوصُ ٱلغَوّاصُونَ إِلى ٱلقاعِ ويَسْتَخْرِجُونَ ٱلمَحارَ ، وَيَسْتَخْدِمُونَ في عَمَلِهِمْ هٰذا سُفُنًا خاصَّةً يُسَمّونَها سُفُنَ صَيْدِ ٱللُّؤْلُؤِ .

كانَ أَبي بَلّاس سالْازار أَشْهَرَ تُجّارِ ٱللُّؤْلُؤِ في بَلَدِنا . وقَدْ عُرِفَ بِحُسْنِ تَعامُلِهِ مَعَ ٱلصَّيّادِينَ ٱلَّذينَ يَبيعُونَهُ صَيْدَهُمْ ، وَمَعَ ٱلمُشْتَرينَ ٱلَّذينَ يَفِدُونَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ مَكانٍ .

وفي شَهْرٍ يُولْيه مِنَ ٱلعامِ ٱلماضي ، وَيَوْمَ عيدِ مِيلادي ٱلسّادِسَ عَشَرَ ، جَعَلَني أَبي شَريكًا لَهُ في تِجارَتِهِ ، وَثَبَّتَ على بابِ مَكْتَبِهِ لافِتةً تَحْمِلُ هٰذا ٱلمَعْنى . وَدَعاني إِلى مَكْتَبِهِ ، وَأَشارَ إِلى ٱللّافِتَةِ ، وَقالَ مُبْتَهِجًا :

« لَقَدْ أَصْبَحْنا يا بُنَيَّ مِنَ ٱليَوْمِ شَريكَيْنِ ، وَسَنَبيعُ ضِعْفَ ما كُنْتُ أَبيعُ أَنا وَحْدي ، وَسَوْفَ تَزْدَهِرُ تِجارَتُنا وَتَتَّسِعُ . عَلَيْكَ ٱلآنَ أَنْ تَرْفَعَ هامَتَكَ ، وَتَرْتَدِيَ مَلابِسَ ٱلكِبارِ ، فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلمَلابِسَ تُظْهِرُ ساعِدَيْكَ ٱلنَّحيلَتَيْنِ . »

كانَ جِسْمي ضَئيلًا بِٱلنِّسْبَةِ لِعُمْري ، وكانَ أَبي يَوَدُّ لَوْ كُنْتُ مِثْلَهُ ضَخْمَ ٱلجِسْمِ .

وقادني أبي إلى حُجرةِ مَكْتَبِهِ كَيْ يُرِيَني كَيْفَ تُفْتَحُ الخِزانةُ الحَديديَّةُ الَّتي يَحْتَفِظُ فيها بِاللُّؤْلُؤِ . وَأَخْرَجَ الصَّناديقَ وَكَشَفَ لي عَمَّا بِداخِلِها مِنْ لُؤْلُؤٍ مُخْتَلِفِ الألْوانِ وَالأشْكالِ وَالأحْجامِ .

قال لي : « في الغَدِ يارامُون سَأُعَلِّمُكَ كَيْفَ تَزِنُ اللُّؤْلُؤَ . هٰذا شَيْءٌ هامٌّ . فَاللُّؤْلُؤَةُ الكَبيرةُ تُساوي الكَثيرَ ، لَوْ كانَتْ جَميلةَ اللَّوْنِ وَالشَّكْلِ ؛ وتَنْخَفِضُ قيمَتُها إذا لَمْ تَكُنْ كَذٰلِكَ .

« إنَّ وَزْنَ الذَّهَبِ وَالجَواهِرِ وَاللَّآلِئِ يُقاسُ بِالقَراريطِ ، وَالقيراطُ يُساوي خُمْسَ غِرامٍ ، وَسَوْفَ أُبَيِّنُ لَكَ أشْكالَ اللُّؤْلُؤِ المُخْتَلِفةَ ، وَأُريكَ كَيْفَ تَضَعُ اللُّؤْلُؤَةَ أمامَ الضَّوْءِ ، وتَحْكُمُ عَلَيْها بِالجَوْدةِ أوِ الرَّداءةِ ، وَعِنْدَما تَكْبُرُ مِثْلي سَوْفَ تُصْبِحُ مِنْ أشْهَرِ تُجّارِ اللُّؤْلُؤِ في العالَمِ ، وَسَوْفَ تُعَلِّمُ ابْنَكَ ما عَلَّمْتُكَ . »

كان هٰذا اليَوْمُ مِنْ أسْعَدِ أيّامِ حَياتي ، وَلٰكِنّي خَشيتُ أنْ يَطولَ الوَقْتُ قَبْلَ أنْ يَسْمَحَ لي والِدي بِالخُروجِ مَعَ سُفُنِ صَيْدِ اللُّؤْلُؤِ ، وَهٰذا ما كُنْتُ أحْلُمُ بِهِ دائِمًا . كان والِدي يَقولُ لي : « سَوْفَ تَخْرُجُ مَعَ السُّفُنِ عِنْدَما تَبْلُغُ السادِسةَ عَشْرةَ ، وَسَأُعَلِّمُكَ كَيْفَ تَغُوصُ في الماءِ . »

وَقَدْ بَلَغْتُ هٰذِهِ السِّنَّ الآنَ ، وبَقِيَ أنْ أتَعَلَّمَ أشْياءَ قَبْلَ أنْ أغوصَ بَحْثًا عَنِ اللُّؤْلُؤِ .

وَذاتَ يَوْمٍ شاهَدْتُ مِنْ نافِذةٍ صَغيرةٍ في حُجْرةِ المَكْتَبِ سُفُنَنا الخَمْسَ

مُعَدَّةً لِلإبْحارِ . وَسَمِعْتُ أبي يُصْدِرُ تَعْليماتِهِ لِرِجالِهِ بِالاسْتِعْدادِ لِلرَّحيلِ خِلالَ ثَلاثِ ساعاتٍ ، وَكُنْتُ مُسْتَعِدًّا تَمامًا لِلإبْحارِ مَعَهُمْ لَوْ سَمَحَ لي بِذٰلِكَ .

كانَ واجِبي في ذٰلِكَ اليَوْمِ أنْ أفْحَصَ بَعْضَ اللُّؤْلُؤِ ، وَأَزِنَهُ وَأُسَجِّلَ مُواصَفاتِهِ في سِجِلٍّ خاصٍّ . وَبَدَأْتُ بِأكْبَرِ اللَّآلِئِ حَجْمًا ، وَلٰكِنَّها لَمْ تَكُنْ مُسْتَديرةً تَمامًا ، وَبَدا بِداخِلِها بَعْضُ الشَّوائِبِ فَدَوَّنْتُ بِالسِّجِلِّ : « اللُّؤْلُؤَةُ رَقْمُ (١) تَزِنُ ثَمانيةَ قَراريطَ وَسَبْعةَ أعْشارِ القيراطِ ، رديئةُ اللَّوْنِ . »

وَفَحَصْتُ الثّانِيةَ وَكَتَبْتُ : « اللُّؤْلُؤَةُ رَقْمُ (٢) تَزِنُ ثَلاثةَ قَراريطَ ، مُسْتَديرةٌ ولَوْنُها جَميلٌ . » وَبَيْنَما كُنْتُ أزِنُ اللُّؤْلُؤَةَ السّابِعةَ سَمِعْتُ وَقْعَ خُطُواتٍ ، ثُمَّ انْفَتَحَ البابُ الحَديديُّ لِيَدْخُلَ أبي العِمْلاقُ بِسَحْنَتِهِ السَّمْراءِ

ٱلَّتي ٱكْتَسَبَها مِنْ حَرارةِ ٱلشَّمْسِ وَهَواءِ ٱلبَحْرِ .

تَقَدَّمَ أَبي نَحْوي وَنَظَرَ في ٱلسِّجِلِّ ٱلَّذي أُدَوِّنُ فيه مُلاحَظاتي وَقالَ : « أَنْتَ سَريعٌ في عَمَلِكَ . لَقَدِ ٱنْتَهَيْتَ مِنْ فَحْصِ سِتِّ لآلِئَ في فَتْرةٍ وَجيزةٍ جِدًّا . » ثُمَّ ٱلْتَقَطَ إِحْداها قائِلًا : « تُرى ماذا كَتَبْتَ عَنْ هٰذِهِ ؟ »

قُلْتُ : « كَتَبْتُ إِنَّها مُستَديرةٌ ، تَزِنُ ثَلاثَةَ قَراريطَ وَنِصْفَ ٱلقيراطِ ، وَلَوْنُها لا بَأْسَ بِهِ . »

قالَ : « لا بَأْسَ بِهِ ! هٰذِهِ لُؤْلُؤَةٌ تَليقُ بِمَلِكٍ . »

قُلْتُ : « بِمَلِكٍ فَقيرٍ . إِنَّكَ لَوْ وَضَعْتَها أَمامَ ٱلضَّوْءِ لَشاهَدْتَ بُقْعَةً داكِنَةً بِداخِلِها . »

قالَ : « هٰذِهِ يُمْكِنُ إِزالَتُها . »

قُلْتُ : « أَشُكُّ في ذٰلِكَ يا أَبي . »

فابْتَسَمَ وَقالَ : « وَأَنا كَذٰلِكَ ! إِنَّكَ سَريعُ ٱلتَّعَلُّمِ يا بُنَيَّ ! وَبِمُرورِ ٱلوَقْتِ سَتَعْرِفُ أَكْثَرَ مِمَّا أَعْرِفُ . »

قُلْتُ ، وَلَمْ يَبْقَ عَلى إِقْلاعِ ٱلسَّفينِ سِوى ساعةٍ واحِدةٍ : « إِنَّني أَرْغَبُ يا أَبي في مُرافَقَتِكُمُ ٱلْيَوْمَ . لَقَدْ سَبَقَ أَنْ وَعَدْتَني بِذٰلِكَ عِنْدَما أَبْلُغُ ٱلسَّادِسَةَ عَشْرَةَ ، وَهٰأَنَذا قَدْ بَلَغْتُها . »

أَجابَ والِدي : « لَوْ رافَقْتَنا لَكُنَّا – أَنا وَأَنْتَ – مَعًا في ٱلبَحْرِ ، وَرُبَّما

تَهُبُّ عاصِفَةٌ فَتُودِيَ بِٱلأَبِ وَٱلٱبْنِ مَعًا ، وَتَنْتَهي أُسْرَةُ سالازار . »

قُلْتُ : « يا سَيِّدي ، إِنَّهُ يَوْمٌ جَميلٌ غَيْرُ عاصِفٍ . »

قالَ : « ٱلْيَوْمَ .. وَلٰكِنْ ماذا عَنِ ٱلغَدِ ؟ وَماذا عَنْ شَيْطانِ ٱلبَحْرِ ؟ »

قُلْتُ : « إِنَّني أَحْمِلُ ٱلسِّكِّينَ ٱلَّذي أَعْطانيهِ جَدِّي . وَلَوْ أَخَذْتَني مَعَكُمْ فَسَأُعاوِنُكُمْ في إِخْراجِ ٱلسَّلالِ مِنَ ٱلماءِ عِنْدَما يَغُوصُ ٱلرِّجالُ . »

قالَ والِدي ضاحِكًا : « إِنَّ سِكِّينَكَ هٰذا صَغيرٌ وَلا يَصْلُحُ لِمُواجَهَةِ سَمَكَةٍ مِنْ نَوْعِ شَيْطانِ ٱلبَحْرِ ! إِنَّهُ خَطِرٌ جِدًّا ! »

قُلْتُ : « نَسِيتُ يا أَبي أَنْ أُخْبِرَكَ أَنَّ زَوْجَةَ غُوليتا جاءَتْ في ٱلصَّباحِ لِتُخْبِرَكَ أَنَّهُ مَريضٌ وَلَنْ يَتَمَكَّنَ مِنْ مُرافَقَتِكُمُ ٱلْيَوْمَ . وَأَنا أَسْتَطيعُ أَنْ أَحُلَّ مَحَلَّهُ . »

نَظَرَ أَبي إِلى ٱلسَّماءِ وَإِلى أَوْراقِ ٱلأَشْجارِ ٱلسَّاكِنَةِ وَقَدْ تَغَيَّرَ وَجْهُهُ ، ثُمَّ حَمَلَ ٱللُّؤْلُؤَ وَأَعادَهُ إِلى مَكانِهِ وَقالَ : « ٱتْبَعْني يا رامون . »

كانَتِ ٱلشَّمْسُ تَميلُ نَحْوَ ٱلمَغيبِ وَنَحْنُ في طَريقِنا إِلى ٱلشَّاطِئِ .

قالَ والِدي : « هَلْ أَخْبَرْتَ والِدَتَكَ ؟ لا ! سَأُرْسِلُ مَنْ يُخْبِرُها ، لِأَنَّكَ لَوْ ذَهَبْتَ لَضاعَ وَقْتٌ نَحْنُ في حاجَةٍ إِلَيْهِ ، وَسَوْفَ تَعْتَرِضُ عَلى مَجيئِكَ مَعَنا . »

الفَصْلُ الثَّالِثُ

الإشبيلِيُّ

كانَتْ هُناكَ خَمْسُ سُفُنٍ ، تَحْمِلُ كُلٌّ مِنْها أَرْبَعَةَ رِجالٍ أَوْ خَمْسَةً ، وكانَ عَلى سَفينَتِنا أَبي وَأَنا ورَجُلٌ هِنْدِيٌّ وَشابٌّ يُدْعى غاسْبَر رُويز ، قالَ إِنَّهُ جاءَ مِنْ مَدينَةٍ إِشْبيلِيَّةٍ فَلَقَّبْناهُ بِالإِشْبيلِيِّ .

كانَ غاسْبَر طَويلَ القامَةِ قَوِيَّ البِنْيَةِ ، ذا شَعْرٍ ذَهَبِيٍّ كَثيفٍ ، وعَيْنَيْنِ زَرْقاوَيْنِ جَميلَتَيْنِ . كانَ حَسَنَ المَظْهَرِ ، بَذيءَ اللِّسانِ ، جائِرًا في أَحْكامِهِ عَلى غَيْرِهِ مِنَ النَّاسِ .

كانَ صَيَّادَ لُؤْلُؤٍ ماهِرًا يَسْتَطيعُ أَنْ يَبْقى تَحْتَ الماءِ ثَلاثَ دَقائِقَ وَأَحْيانًا أَرْبَعًا ، عَلى حينِ لا يَسْتَطيعُ غَيْرُهُ البَقاءَ تَحْتَ الماءِ أَكْثَرَ مِنْ دَقيقَتَيْنِ فَقَطْ . وَكَثيرًا ما قَصَّ عَلَيْنا القِصَصَ الرَّائِعَةَ عَنْ أَعْمالِهِ في إِسْبانْيا وَغَيْرِها مِنْ دُوَلِ العالَمِ حَتَّى إِنَّهُ سَجَّلَ بِالوَشْمِ عَلى جَسَدِهِ رُسومًا تُصَوِّرُ مَعارِكَهُ مَعَ الدِّبَبَةِ وَغَيْرِها مِنَ الحَيَواناتِ المُفْتَرِسَةِ .

ما كادَتِ السُّفُنُ تُبْحِرُ حَتَّى بَدَأَ الإِشْبيلِيُّ يَرْوي قِصَّةَ لُؤْلُؤَةٍ أَكْبَرَ مِنْ بَيْضَةِ الدَّجاجَةِ ، وَجَدَها في الخَليجِ العَرَبِيِّ .

سَأَلْتُهُ : « ماذا فَعَلْتَ بِها ؟ »

أَجابَ : « بِعْتُها لِلشّاهِ ، مَلِكِ فارِس ، ثُمَّ اشْتَرَيْتُ سُفُنًا لِصَيْدِ اللُّؤْلُؤِ ،

وَكِدْتُ أُصْبِحُ ثَرِيًّا غَيْرَ أَنَّ عاصِفَةً هَبَّتْ فَأَغْرَقَتِ السُّفُنَ ، وَجاهَدْتُ بِشَجاعَةٍ حَتَّى أَنْقَذْتُ رِجالي كُلَّهُمْ . »

كُنْتُ قَبْلَ أَنْ أُصْبِحَ شَرِيكًا لِوالِدي ، أُشاهِدُ الإِشْبيلِيَّ عَلى الشَّاطِئِ وحَوْلَهُ جَمْعٌ مِنَ النَّاسِ يُصْغُونَ لِقِصَصِهِ ، وَكُنْتُ أَشْعُرُ أَنَّهُ يُوَجِّهُ حَديثَهُ إِلَيَّ أَكْثَرَ مِنْ غَيْري .

وذاتَ يَوْمٍ أَحْسَسْتُ بِكَذِبِ القِصَّةِ الَّتي كانَ يَرْويها فَسَأَلْتُهُ : « هَلْ هٰذِهِ قِصَّةٌ واقِعِيَّةٌ ؟ »

أَجابَني غاضِبًا : « أَلا تُصَدِّقُني ؟ أَنْتَ ابْنُ رَجُلٍ ثَرِيٍّ ، تَعيشُ في بَيْتٍ كَبيرٍ ، وَتَأْكُلُ أَفْضَلَ طَعامٍ ، وَلٰكِنَّكَ لَمْ تَعْمَلْ في حَياتِكَ سِوى القَليلِ ، وَلَنْ تَفْعَلَ الكَثيرَ . أَمَّا أَنا فَقَدْ قُمْتُ بِأَعْمالٍ كَثيرةٍ ، ولا أَرْوي عَنْها إِلَّا الصِّدْقَ . وَعَلَيْكَ أَنْ تَكونَ حَذِرًا في حَديثِكَ مَعي . »

غادَرْتُ المَكانَ غاضِبًا ، وَأَرَدْتُ أَنْ أَعودَ إِلَيْهِ وَأُقاتِلَهُ ، وَلٰكِنَّهُ كانَ أَقْوى وَأَكْبَرَ مِنّي . وَخَشِيتُ أَنْ يَغْضَبَ والِدي إِذا ما تَشاجَرْتُ في مَكانٍ عامٍّ ، وَلٰكِنَّني أَخْبَرْتُهُ بِما حَدَثَ .

في تِلْكَ اللَّيْلَةِ ، بَيْنَما كانَتِ السُّفُنُ تَشُقُّ طَريقَها في البَحْرِ ، جَلَسَ الإِشْبيلِيُّ يَتَحَدَّثُ عَنْ شَجاعَتِهِ ، ويَرْوي كَيْفَ تَمَكَّنَ مِنْ إِنْقاذِ رِجالِهِ مِنَ العاصِفَةِ ، مُحاوِلًا إِشْراكي في الحَديثِ ، وَلٰكِنَّني أَصْغَيْتُ وَالتَزَمْتُ الصَّمْتَ .

عِنْدَ طُلوعِ النَّهارِ وَصَلْنا إِلى مَهْدِ المَحارِ في قاعِ البَحْرِ حَيْثُ يُوجَدُ اللُّؤْلُؤُ . ودَرَّبَني أَبي عَلى طَريقَةِ انْتِشالِ السَّلَّةِ بَعْدَ أَنْ تَمْتَلِئَ بِالمَحارِ ، وعَلى تَفْريغِها . ثُمَّ تَناوَلَ حَجَرًا كَبيرًا يُسَمّى حَجَرَ الغَوْصِ ، وقَدْ رُبِطَ بِطَرَفِ

حَبْلٍ ، وَثَبَّتَ طَرَفَ الحَبْلِ الآخَرَ بِالسَّفينَةِ وَأَلْقى الحَجَرَ في الماءِ وحَمَلَ السَّلَّةَ المَرْبُوطَةَ بِحَبْلٍ وَقَفَزَ إِلى الماءِ ، وَغاصَ حَتّى وَصَلَ إِلى القاعِ . كُنْتُ أَراهُ مِنْ خِلالِ الماءِ الصّافي وَهُوَ يَنْتَزِعُ المَحارَ مِنْ فَوْقِ الصُّخورِ بِسِكِّينِهِ وَيَضَعُهُ في سَلَّتِهِ .

وَعِنْدَما امْتَلَأَتْ جَذَبَ الحَبْلَ ، فَأَخْرَجْتُ السَّلَّةَ ثُمَّ صَعِدَ هُوَ إِلى السَّفينَةِ . وَكُنْتُ قَدْ وَضَعْتُ المَحارَ في مَكانِهِ وَأَخْرَجْتُ حَجَرَ الغَوْصِ اسْتِعْدادًا لِلْمَرَّةِ التّالِيَةِ .

كانَ الإِشْبيلِيُّ قَدْ غاصَ إِلى القاعِ قَبْلَ أَبي ، ولَمْ يَطْفُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ غاصَ أَبي ثانِيَةً ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ قائِلًا : « كَيْفَ يَسيرُ العَمَلُ ؟ »

أَجَبْتُ : « إِنَّني أَتَعَلَّمُ . »

قالَ : « لَيْسَ هُناكَ الكَثيرُ لِتَتَعَلَّمَهُ . إِنَّكَ تَجْذِبُ الحَبْلَ لِتُخْرِجَ السَّلَّةَ ، وَتَجْذِبُ حَجَرَ الغَوْصِ ، ثُمَّ تَضَعُ المَحارَ في مَكانِهِ ، وتَنْتَظِرُ قَليلًا ، ثُمَّ تَعودُ إِلى القِيامِ بِهٰذِهِ الأَعْمالِ مَرَّةً أُخْرى . »

قُلْتُ : « إِنَّ الغَوْصَ أَكْثَرُ مُتْعَةً . »

فَقالَ : « إِنَّ الغَوْصَ أَكْثَرُ مُتْعَةً ، وَلٰكِنَّهُ أَكْثَرُ خَطَرًا ، وَمِنَ الأَسْلَمِ لَكَ أَنْ تَبْقى بِالقارِبِ . »

كانَ كُلَّما خَرَجَ مِنَ الماءِ لِيَسْتَنْشِقَ الهَواءَ ، في فَتْرَةِ بَعْدَ الظُّهْرِ ، يُحَذِّرُني

مِنْ أَنْ تَشْتَبِكَ قَدَماىَ فِي ٱلْحَبْلِ ، وَمِنْ أَنْ أَسْقُطَ فِي ٱلْماءِ .

قالَ أَبي عَنْهُ إِنَّهُ مُثيرٌ لِلْمَتاعِبِ ، وَلٰكِنَّهُ أَمْهَرُ غَوَّاصينا .

حَلَّ ٱلظَّلامُ ، وَكانَتِ ٱلسُّفُنُ قَدِ ٱمْتَلَأَتْ بِٱلْمَحارِ ، فَبَدَأْنا رِحْلَةَ ٱلْعَوْدَةِ .

وَعِنْدَما بَزَغَ ٱلْقَمَرُ وَتَبَدَّدَتْ ظُلْمَةُ ٱللَّيْلِ ، بَدَأَ ٱلإِشْبيلِيُّ يَقُصُّ مِنْ جَديدٍ قِصَّتَهُ عَنِ ٱللُّؤْلُؤَةِ ٱلْكَبيرَةِ ٱلَّتي وَجَدَها في ٱلْخَليجِ ٱلْعَرَبِيِّ . وَجَلَسْتُ أَسْتَمِعُ إِلَيْهِ وَأُحَلِّقُ في عالَمِ ٱلأَحْلامِ .

حَلَمْتُ أَنَّني كُنْتُ بِقارِبٍ في خَليجٍ سِرِّيٍّ في مَكانٍ ما بِأَحَدِ ٱلْبِحارِ ، وَأَخَذْتُ ٱلسَّلَّةَ وَحَجَرَ ٱلْغَوْصِ وَهَبَطْتُ إِلى ٱلْقاعِ ، ثُمَّ مَلَأْتُ ٱلسَّلَّةَ بِٱلْمَحارِ وَعُدْتُ إِلى ٱلْقارِبِ . أَخْرَجْتُ ٱلسَّلَّةَ وَأَخَذْتُ أَفْتَحُ ٱلْمَحارَ واحِدَةً بَعْدَ ٱلأُخْرى . لا شَيْءَ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا واحِدَةٌ عِنْدَما فَتَحْتُها وَجَدْتُ بِداخِلِها لُؤْلُؤَةً أَكْبَرَ مِنْ قَبْضَةِ ٱلْيَدِ تُضيءُ كَما لَوْ كانَ بِداخِلِها نورٌ : إِنَّها لُؤْلُؤَةُ ٱلسَّماءِ .

تَوَقَّفَ ٱلإِشْبيلِيُّ في هٰذِهِ ٱللَّحْظَةِ عَنِ ٱلْكَلامِ ، وَنَهَضَ واقِفًا وَأَشارَ بِيَدِهِ : « ٱنْظُروا ! شَيْطانُ ٱلْبَحْرِ ! شَيْطانُ ٱلْبَحْرِ ! » فَقَفَزْتُ مِنْ مَكاني ، وَعِنْدَما ٱعْتَلَتِ ٱلسَّفينَةُ مَوْجَةً ، شاهَدْتُ جِسْمًا فِضِّيًّا قَدْ بَرَزَ نِصْفُهُ مِنَ ٱلْماءِ عَلى مَسافَةِ أَرْبَعِمِئَةِ مِتْرٍ تَقْريبًا .

إِنَّ مَنْظَرَ شَيْطانِ ٱلْبَحْرِ مُخيفٌ . وَهُناكَ نَوْعٌ صَغيرٌ مِنْهُ لا يَزيدُ عَنْ عَشْرِ أَقْدامٍ بِما فيهِ عَرْضُ ٱلْجَناحَيْنِ ، وَهُناكَ ما يَبْلُغُ ضِعْفَ ذٰلِكَ .

وَفَمُ شَيْطانِ ٱلْبَحْرِ يَتَّسِعُ لِرَأْسِ رَجُلٍ ، وَلَهُ ما يُشْبِهُ ٱلذِّراعَيْنِ يَدْفَعُ بِهِما

ٱلطَّعامَ داخِلَ فَمِهِ . وَتَتْبَعُ شَيْطانَ ٱلْبَحْرِ سَمَكَةٌ صَغيرَةٌ تَدْخُلُ فَمَهُ وَتَخْرُجُ مِنْهُ كَيْ تُنَظِّفَ أَسْنانَهُ مِنْ بَقايا ٱلطَّعامِ .

ٱرْتَعَبَ ٱلْهِنْدِيُّ ، وَخَرَّ عَلى رُكْبَتَيْهِ وَبَدَأَ يُصَلِّي . وَصاحَ ٱلإِشْبيلِيُّ مِنْ جَديدٍ : « شَيْطانُ ٱلْبَحْرِ ! »

قالَ أَبي : « كَلَّا ! لَيْسَ هٰذا هُوَ ٱلشَّيْطانَ . إِنَّ ٱلشَّيْطانَ أَكْبَرُ بِكَثيرٍ ، وَلَقَدْ شاهَدْتُهُ بِنَفْسي . »

أَيْقَنْتُ أَنَّ ٱلإِشْبيلِيَّ كانَ يُحاوِلُ أَنْ يُخيفَ ٱلْهِنْدِيَّ ، فَما كانَ مِنْ أَبي إِلَّا أَنْ

صَعِدَ إلى حَيْثُ يَقِفُ الإشْبيليُّ ، ثُمَّ قالَ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ حَتَّى يَسْمَعَ الهِنْديُّ :
« لَيْسَ هٰذا هُوَ الشَّيْطانَ ، ولا حَتَّى أُخْتَهُ الصُّغْرى . »

في طَريقِنا إلى المَنْزِلِ ، وَفي ضَوْءِ القَمَرِ ، قالَ لي أبي : « تَعامَلْ مَعَ الإشْبيليِّ بِحَذَرٍ . اسْتَمِعْ إلى قِصَصِهِ وتَظاهَرْ بِأنَّكَ تُصَدِّقُها ، فَهُوَ رَجُلٌ خَطيرٌ . إنَّهُ لَمْ يَذْهَبْ طَوالَ حَياتِهِ إلى إشْبيليَةَ وَلا إلى الخَليجِ العَرَبيِّ ، ولٰكِنَّ مَعارِكَهُ في كاليكان – وهُوَ مَكانٌ قَريبٌ مِنّا – عَديدةٌ ، وَقَدْ قَتَلَ رَجُلًا في إحْداها . »

في الطَّريقِ عادَ بي التَّفْكيرُ في حُلْمي ، وَفي اللُّؤْلُؤَةِ الكَبيرةِ الَّتي وَجَدْتُها ، وَفي دَهْشَةِ الإشْبيليِّ الَّتي أبْداها عِنْدَما تَصَوَّرْتُهُ رَآها .

الفَصْلُ الرَّابِعُ

سُوتُو لُوزُون يُحْضِرُ لُؤْلُؤَةً سَوْداءَ

بَعْدَ أرْبَعَةِ أيّامٍ شاهَدْتُ مِنَ النّافِذَةِ قارِبًا أحْمَرَ قادِمًا بِسُرْعَةٍ إلى لاباز . كانَ قارِبَ رَجُلٍ هِنْديٍّ يُدْعى سُوتُو لُوزُون .

سُرِرْتُ لِرُؤْيَةِ لُوزُون العَجوزِ ، فَقَدْ كانَ يَبيعُ اللُّؤْلُؤَ لِأبي مُنْذُ سَنَواتٍ . وهُوَ يُحْضِرُ كُلَّ ثَلاثَةِ أشْهُرٍ تَقْريبًا ، وَلا يَجْلِبُ في كُلِّ مَرَّةٍ أكْثَرَ مِنْ لُؤْلُؤَةٍ واحِدةٍ ثَمينَةٍ . وَبَعْدَ أنْ عَمِلْتُ مَعَ أبي أحْضَرَ لُؤْلُؤَةً سَوْداءَ كَبيرةً وَدِدْتُ لَوْ لَمْ أحْضِر مِثْلَها اليَوْمَ ؛ لِأنَّنا لَمْ نَجِدْ داخِلَ كَمِّيَةِ المَحارِ الأخيرةِ سِوى حَبّاتٍ لُؤْلُؤٍ صَغيرةٍ لَيْسَ بَيْنَها واحِدةٌ ذاتُ قيمةٍ .

عِنْدَما وَصَلَ لُوزُون إلى البابِ دَعَوْتُهُ إلى الدُّخولِ وَالجُلوسِ .

قالَ : « أشْكُرُكَ ، ولٰكِنّي أُفَضِّلُ الوُقوفَ . لَقَدْ سافَرْتُ طَوالَ اللَّيْلِ ، وَمَرَرْتُ بِسُفُنِكُمْ في الصَّباحِ بِالقُرْبِ مِنَ الدّرّادو . »

قُلْتُ : « إنَّها في طَريقِها إلى جُزُرِ سيرالْفو . »

سَألَني : « أَلَيْسَتِ المِنْطَقَةُ هُنا صالِحَةً لِلصَّيْدِ ؟ »

أجَبْتُهُ : « بَلى ، صالِحَةٌ جِدًّا . » فَلَيْسَ مِنَ الحِكْمَةِ أنْ أُقَرِّرَ لِرَجُلٍ جاءَ لِشِرائِنا لُؤْلُؤَةً أنَّ المِنْطَقَةَ غَيْرُ صالِحَةٍ لِلصَّيْدِ .

سَأَلَني : « لِماذا إذًا تَذْهَبُ سُفُنُكُمْ إلى سِيرالْفو ؟ »

أَجَبْتُهُ : « إنَّ والِدي يَوَدُّ اسْتِخْراجَ لُؤْلُؤٍ أَسْوَدَ . »

أَخْرَجَ اَلرَّجُلُ قِطْعَةَ قُماشٍ مِنْ داخِلِ قَميصِهِ قائِلًا : « هٰذِهِ لُؤْلُؤَةٌ سَوْداءُ . »

كانَتْ لُؤْلُؤَةً مُسْتَديرةً جَميلةً ، كَتِلْكَ اَلَّتي اشْتَرَيْتُها مِنْهُ مُنْذُ ثَلاثَةِ أَشْهُرٍ . وَزَنْتُها ثُمَّ أَعْطَيْتُهُ أَكْثَرَ مِمَّا تَسْتَحِقُّهُ مِنْ ثَمَنٍ ، لِأَنَّني كُنْتُ في حاجَةٍ لِمُعاوَنَتِهِ .

قُلْتُ : « لا بُدَّ أَنَّ هُناكَ اَلْكَثيرَ مِنَ اَللُّؤْلُؤِ اَلْأَسْوَدِ في اَلْمَكانِ اَلَّذي اسْتَخْرَجْتَ مِنْهُ هٰذِهِ اَللُّؤْلُؤَةَ . هَلْ تَسْمَحُ لي بِمُرافَقَتِكَ لِلصَّيْدِ هُناكَ ؟

وَسَوْفَ أَدْفَعُ لَكَ ثَمَنَ كُلِّ اَللُّؤْلُؤِ اَلَّذي أَجِدُهُ . »

قالَ اَلرَّجُلُ : « لٰكِنَّكَ لَسْتَ غَوَّاصًا . »

قُلْتُ : « يُمْكِنُكَ أَنْ تُعَلِّمَني . »

قال : « لَقَدْ قالَ والِدُكَ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ إنَّه لم يُرِدْكَ لِتَفْقِدَ ساقًا أَوْ ذِراعًا أَوْ لِتَخْرُجَ وَلا تَعودَ أَبَدًا . »

قُلْتُ : « لَقَدْ ذَهَبَ والِدي إلى سِيرالْفو ، ولَنْ يَعودَ قَبْلَ أُسبوعٍ أَوْ أَكْثَرَ ، وسَيَذْهَبُ والِدَتي وَشَقيقَتي إلى مَدينَةِ لُورِيتو اَلْيَوْمَ . سَأَبْحَثُ عَنْ لُؤْلُؤَةٍ سَوْداءَ كَبيرةٍ وَعِنْدَما أَجِدُها سَأَدْفَعُ لَكَ ثَمَنَها . »

قالَ : « لَقَدْ ظَلَلْتُ أُحاوِلُ أَنْ أَجِدَ لُؤْلُؤَةً كَالَّتي تَتَحَدَّثُ عَنْها لِسَنَواتٍ عَديدَةٍ ، فَكَيْفَ تَسْتَطيعُ أَنْ تَجِدَها أَنْتَ في أُسْبوعٍ ؟! »

قُلْتُ : « مِنَ اَلْمُحْتَمَلِ أَنْ تَجِدَها أَوَّلَ مَرَّةٍ تَغوصُ فيها . »

كانَ اَلرَّجُلُ يُفَكِّرُ في زَوْجَتِهِ وَأَطْفالِهِ اَلْخَمْسَةِ اَلَّذينَ كانَ عَلَيْهِ إطْعامُهُمْ كُلَّ يَوْمٍ .

قالَ : « حَسَنًا ، سَأَشْتَري بَعْضَ اَلطَّعامِ ثُمَّ نَرْحَلُ . »

أَخَذْتُ اَللُّؤْلُؤَ إلى اَلْجِرانَةِ ، وَسِرْتُ مَعَهُ . وفي اَلطَّريقِ إلى اَلشَّاطِئِ كُنْتُ أُفَكِّرُ في اَللُّؤْلُؤَةِ اَلْكَبيرَةِ اَلَّتي حَلَمْتُ بِها عِنْدَما كانَ اَلإِسْبيلِيُّ يَقُصُّ قِصَّتَهُ ، وَأُفَكِّرُ كَيْفَ

سَيَكونُ وَقْعُ ٱلخَبَرِ عَلَيْهِ عِنْدَ ما يَسْمَعُ ٱلمَدِينَةَ كُلَّها تَتَحَدَّثُ عَنِ ٱللُّؤْلُؤَةِ ٱلكَبيرَةِ ٱلَّتي وَجَدَها رامُون سالازار .

لا يَحْلُمُ مِثْلَ هٰذا ٱلحُلْمِ إِلّا صِغارُ ٱلعُقولِ ، وَلٰكِنْ عَلى أَيَّةِ حالٍ ، وَكَما يَحْدُثُ أَحْيانًا ، يَتَحَوَّلُ ٱلحُلْمُ إِلى حَقيقَةٍ .

ٱلفَصْلُ ٱلخامِسُ

بُحَيْرَةُ شَيْطانِ ٱلبَحْرِ

عِنْدَ شُروقِ ٱلشَّمْسِ وَصَلْنا إِلى ٱلبُحَيْرَةِ ، حَيْثُ يُقيمُ سُوتو لُوزُون ، وَقَدْ تَحَدَّدَ مَدْخَلُها بِصَخْرَتَيْنِ كَبيرَتَيْنِ ، بَيْنَهُما مَمَرٌّ تَجْتازُهُ ٱلزَّوارِقُ عِنْدَ دُخولِها إِلى ٱلبُحَيْرَةِ . وَعِنْدَما مَرَرْنا بِهٰذا ٱلمَدْخَلِ ، رَفَعَ لُوزُون قُبَّعَتَهُ . وَعَلى جانِبَيِ ٱلبُحَيْرَةِ بَدَتْ لَنا ٱلتِّلالُ عَموديَّةً ، عَلى حينَ غَطَّتِ ٱلرِّمالُ ٱلسَّوْداءُ ٱلشّاطِئَ عِنْدَ نِهايَةِ ٱلبُحَيْرَةِ . وَكانَتْ هُناكَ شَجَرَتانِ وَبَعْضُ ٱلأَكْواخِ ٱلَّتي كانَتِ ٱلنّارُ مُشْتَعِلَةً في داخِلِها لِإِعْدادِ طَعامِ ٱلإِفْطارِ .

كانَتِ ٱلبُحَيْرَةُ مِثْلَ بَقِيَّةِ ٱلبُحَيْراتِ ٱلأُخْرى ، وَلٰكِنْ كانَ فيها شَيْءٌ لَمْ يُرُقْني وَسَبَّبَ لي ٱنْزِعاجًا . لَمْ يَكُنْ هٰذا ٱلشَّيْءُ ٱلضَّبابَ ٱلأَحْمَرَ ، أَوِ ٱلغَمامَ ٱلأَحْمَرَ ٱلَّذي تَجَمَّعَ في ٱلسَّماءِ ، وَلَمْ يَكُنِ ٱلرِّمالَ ٱلسَّوْداءَ عَلى شاطِئِ ٱلبُحَيْرَةِ — كانَ شَيْئًا مُخْتَلِفًا تَمامًا .

ٱنْسابَ قارِبُ لُوزُون فَوْقَ ماءِ ٱلبُحَيْرَةِ بِبُطْءٍ وَهُدوءٍ شَديدٍ ، وَلاذَ هُوَ بِٱلصَّمْتِ . إِنَّ سَمَكَ ٱلقِرْشِ سَمَكٌ ضَخْمٌ جِدًّا يَقْتُلُ ٱلإِنْسانَ أَحْيانًا وَيَفْتَرِسُهُ وَكانَتْ هُناكَ سَمَكَةٌ مِنْ هٰذا ٱلنَّوْعِ تَسْبَحُ حَوْلَ ٱلقارِبِ ، وَأَشارَ إِلَيْها لُوزُونَ دُونَ أَنْ يَنْطِقَ بِكَلِمَةٍ . وَظَلَّ صامِتًا حَتّى وَصَلْنا إِلى مِنْطَقَةِ ٱلأَكْواخِ ، وَعِنْدَئِذٍ قالَ :

« يَجِبُ أَلَّا نَتَكَلَّمَ وَنَحْنُ فِي ٱلْبُحَيْرَةِ . وَتَذَكَّرْ هٰذا عِنْدَما تَخْرُجُ لِلْغَوْصِ ، فَهُناكَ مَنْ يُصْغِي إِلى حَدِيثِنا وَيَغْضَبُ بِسُرْعَةٍ »

سَأَلْتُهُ : « مَنْ ذا ٱلَّذي يَسْمَعُ وَيَغْضَبُ ؟ »

أَجابَ : « شَيْطانُ ٱلبَحْرِ . »

سَأَلْتُهُ : « هَلْ يَعيشُ هُنا في بُحَيْرَتِكُمْ ؟ »

أَجابَ : « نَعَمْ ، إِنَّهُ يَسْكُنُ في كَهْفٍ كَبيرٍ يُمْكِنُكَ أَنْ تَراهُ عِنْدَ ٱلمَدْخَلِ ، غَيْرَ أَنَّهُ يَخْرُجُ عَنْ طَرِيقِ فُتْحَةٍ خَفِيَّةٍ أُخْرَى . »

تَناوَلْنا ٱلإِفْطارَ في كُوخِ لُوزُون ، وَعَفَوْنا فَتْرَةً ، ثُمَّ تَناوَلْنا وَجْبَةً أُخْرَى وَعُدْنا إِلى ٱلبُحَيْرَةِ لِنَسْتَأْنِفَ رِحْلَتَنا إِلى حَيْثُ يُوجَدُ ٱللُّؤْلُؤُ . وَكانَ ٱلضَّبابُ قَدْ تَلاشَى ، وَبَدَتِ ٱلمِياهُ خَضْراءَ صافِيَةً .

قالَ لُوزُون : « إِنَّ ٱخْتِفاءَ ٱلضَّبابِ يَعْني ٱنْصِرافَ شَيْطانِ ٱلبَحْرِ »

قُلْتُ أَسْأَلُهُ : « ٱلآنَ وَقَدِ ٱنْصَرَفَ نَسْتَطيعُ أَنْ نَتَكَلَّمَ إِذًا ؟ »

أَجابَ : « نَسْتَطيعُ أَنْ نَتَكَلَّمَ قَليلًا ، وَلٰكِنْ كُنْ حَذِرًا في كَلامِكَ . إِنَّ لَهُ أَصْدِقاءَ كَثيرينَ في ٱلبُحَيْرَةِ ، وَسَوْفَ يُخْبِرونَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عِنْدَما يَعودُ . »

سَأَلْتُهُ : « أَخائِفٌ أَنْتَ ؟ أَلَا تَرْغَبُ في مُغادَرَةِ ٱلبُحَيْرَةِ ؟ »

أَجابَ : « كَلَّا ! أَنا لا أَخافُ شَيْطانَ ٱلبَحْرِ . إِنَّ أَبي وَجَدِّي لَمْ يَخافا

مِنْهُ ! إِنَّنا نَعْرِفُ أَنَّها بُحَيْرَتُهُ ، وَأَنا أَرْفَعُ قُبَّعَتي تَحِيَّةً لَهُ كُلَّما دَخَلْتُها أَوْ خَرَجْتُ مِنْها . وَهوَ لِذٰلِكَ يَسْمَحُ لي بِصَيْدِ اَلْلُّؤْلُؤِ اَلأَسْوَدِ . إِنَّهُ لُؤْلُؤُهُ في اَلْحَقِيقَةِ ، وَلٰكِنَّهُ يَسْمَحُ لي بِأَخْذِ بَعْضٍ مِنْهُ . »

اِتَّجَهنا بِقارِبِنا ناحِيَةَ اَلشَّاطِئِ اَلْجَنُوبِيِّ ثُمَّ تَوَقَّفْنا .

قالَ لُوزُون : « اَلآنَ سَأُعَلِّمُكَ كَيْفَ تَغُوصُ . يَجِبُ أَنْ تَتَعَلَّمَ اَلتَّنَفُّسَ أَوَّلًا . راقِبْني . اِسْتَنْشِقْ عِدَّةَ مَرَّاتٍ بِعُمْقٍ ثُمَّ أَخْرِجِ اَلْهَواءَ . حاوِلِ اَلآنَ . »

أَخَذْتُ نَفَسًا عَمِيقًا ، فَقالَ : « خُذْ نَفَسًا أَعْمَقَ . » وَحاوَلْتُ ثانِيَةً ، وَقالَ : « أَعْمَقَ ! » . حاوَلْتُ مَرَّةً ثالِثَةً ، فَقالَ : « هٰذِهِ اَلْمَرَّةُ أَحْسَنُ . وَلٰكِنْ عَلَيْكَ أَنْ تَتَعَلَّمَ كَيْفَ تُجِيدُ اَلتَّنَفُّسَ . سَنَغُوصُ مَعًا إِلى اَلْقاعِ . »

بَعْدَ ظُهْرِ ذٰلِكَ اَلْيَوْمِ مَلَأْنا عِدَّةَ سِلالٍ بِالْمَحارِ ، وَلٰكِنَّنا لَمْ نَجِدْ بِداخِلِها سِوَى لُؤْلُؤٍ صَغِيرٍ . وَهٰكَذا كانَتِ اَلْحالُ في اَلْيَوْمِ اَلتّالي وَاَلْيَوْمِ اَلَّذي تَلاهُ .

في اَلْيَوْمِ اَلرّابِعِ خَرَجْتُ بِمُفْرَدي لِأَنَّ لُوزُون كانَ مُصابًا في يَدِهِ — هٰكَذا قالَ .

في ذٰلِكَ اَلْيَوْمِ وَجَدْتُ لُؤْلُؤَةَ اَلسَّماءِ .

اَلْفَصْلُ اَلسّادِسُ

كَيْفَ وَجَدْتُ لُؤْلُؤَةَ اَلسَّماءِ

تَناوَلْنا وَجْبَةَ اَلْعَشاءِ ، وَذَهَبَ اَلأَطْفالُ وَالنِّساءُ إِلى اَلْفِراشِ ، وَجَلَسْتُ مَعَ لُوزُونَ بِجِوارِ اَلنّارِ أُجاذِبُهُ أَطْرافَ اَلْحَدِيثِ .

سَأَلْتُهُ : « لَقَدِ اصْطَدْتَ في كُلِّ مَكانٍ مِنَ اَلْبُحَيْرَةِ عَدا اَلْكَهْفِ ، أَلَيْسَ كَذٰلِكَ ؟ »

أَجابَ : « نَعَمْ ، إِنّي لَمْ أَقْتَرِبْ في صَيْدي مِنَ اَلْكَهْفِ ، وَكَذٰلِكَ أَبي وَجَدّي . »

قُلْتُ : « رُبَّما يَكونُ هُناكَ لُؤْلُؤٌ كَبِيرٌ . »

لَمْ يُجِبْ ، وَلٰكِنَّهُ نَهَضَ وَوَضَعَ بَعْضَ اَلْحَطَبِ في اَلنّارِ وَجَلَسَ مِنْ جَدِيدٍ .

قُلْتُ : « رُبَّما وَجَدْتَ هُناكَ لُؤْلُؤَةَ اَلسَّماءِ . »

لَمْ يُجِبِ اَلرَّجُلُ ، وَلٰكِنَّهُ نَظَرَ إِلَيَّ نَظْرَةً ذاتَ مَعْنًى : إِنَّهُ لَمْ يَذْهَبْ إِلى اَلْكَهْفِ خَوْفًا مِنْ شَيْطانِ اَلْبَحْرِ ، وَإِذا رَغِبْتُ أَنا في اَلصَّيْدِ هُناكَ فَيُمْكِنُني أَنْ أَذْهَبَ بِمُفْرَدي .

في صَباحِ اَلْيَوْمِ اَلرّابِعِ ، ذَهَبْتُ بِمُفْرَدي إِلى اَلشّاطِئِ ، بَعْدَ أَنْ قالَ لُوزُون إِنَّ يَدَهُ مُصابَةٌ وَإِنَّهُ لَنْ يَبْرَحَ مَكانَهُ ، وَنَظَرَ إِلَيَّ فَفَهِمْتُ ما يَعْنِيهِ .

كانَ ٱلصَّبابُ ٱلأَحْمَرُ يُخَيِّمُ عَلى ٱلماءِ ، وَعَبَرْتُ ٱلبُحَيْرَةَ قاصِدًا ٱلكَهْفَ ٱلَّذي يَسْكُنُهُ شَيْطانُ ٱلبَحْرِ ، كَما قالَ لُوزُون . وَبَعْدَ ساعةٍ مِنَ ٱلبَحْثِ وَجَدْتُ ٱلكَهْفَ . فَقَدْ كانَ مُخْتَفِيًا تَحْتَ صَخْرةٍ كَبيرةٍ في مُواجَهةِ ٱلشَّمْسِ ٱلمُشْرِقةِ . كانَ ٱتِّساعُ فُتْحَتِهِ حَوالَى تِسْعةِ أَمْتارٍ ، وَٱرْتِفاعُها حَوالَى مِتْرَيْنِ ، وَكانَ ٱلكَهْفُ مُنْحَدِرًا إِلى أَسْفَلَ كَفَمٍ مَفْتوحٍ . وَلَمْ أَرَ ما بِداخِلِهِ بِسَبَبِ ٱلضَّبابِ ٱلأَحْمَرِ ، فَٱنْتَظَرْتُ حَتَّى ٱرْتَفَعَتِ ٱلشَّمْسُ وَتَلاشَى ٱلضَّبابُ ، حِينَئِذٍ ٱسْتَطَعْتُ أَنْ أَرى لِمَسافةٍ قَصيرةٍ ما بِداخِلِهِ .

عَبَرْتُ ٱلمَدْخَلَ وَوَصَلْتُ إِلى قاعةٍ كَبيرةٍ ذاتِ سَقْفٍ مُرْتَفِعٍ ، وَجُدْرانُها سَوْداءُ تَلْمَعُ مِنَ ٱلضَّوْءِ ٱلَّذي يَنْفُذُ إِلَيْها مِنَ ٱلمَدْخَلِ . وَكانَتِ ٱلمياهُ بِٱلقُرْبِ مِنْ مَدْخَلِ ٱلكَهْفِ مِنَ ٱلصَّفاءِ بِحَيْثُ ٱسْتَطَعْتُ أَنْ أَرى ٱلمَحارَ ٱلمَوْجودَ في ٱلقاعِ .

تَناوَلْتُ ٱلسَّلَّةَ وَحَجَرَ ٱلغَوْصِ ٱلمَرْبوطَ في ٱلحَبْلِ ، وَأَخَذْتُ نَفَسًا عَميقًا ، وَهَبَطْتُ مِنْ جانِبِ ٱلقارِبِ .

بَلَغْتُ ٱلقاعَ عَلى عُمْقِ أَرْبَعةِ أَمْتارٍ تَقْريبًا ، وَرَأَيْتُ ٱلمَحارَ ٱلَّذي لَمَحْتُهُ مِنْ أَعْلى ، وَكانَ عَلى بُعْدِ خَمْسِ خُطُواتٍ تَقْريبًا . وَكانَ أَكْبَرَ مَحارٍ شاهَدْتُهُ في حَياتي ؛ إِذْ بَلَغَ طُولُ ٱلواحِدةِ ما يَزيدُ عَلى ٣٠ سَنْتيمِتْرًا . وَكانَ ٱلمَحارُ سَميكًا جِدًّا وَمَكْسُوًّا بِٱلأَعْشابِ ٱلبَحْرِيَّةِ ٱلَّتي تُشْبِهُ شَعْرَ ٱلنِّساءِ . وَٱخْتَرْتُ أَقْرَبَ مَحارةٍ ، فَقَدْ بَدَتْ أَيْسَرَ مِنْ غَيْرِها في ٱلحُصولِ عَلَيْها ، وَبَدَأْتُ أَنْزِعُها بِسِكِّيني . وَلٰكِنَّ صِعارَ ٱلسَّمَكِ ظَلَّ يَسْبَحُ حَوْلي بِكَثْرةٍ ، فَلَمْ أَسْتَطِعْ نَزْعَها .

وَصَعِدْتُ إِلى ٱلسَّطْحِ كَيْ أَتَنَفَّسَ .

غُصْتُ ثانيةً ، وَوَصَلْتُ إِلى ٱلقاعِ ، وَلٰكِنْ عِنْدَما بَدَأْتُ أَنْزِعُ ٱلمَحارةَ شاهَدْتُ ظِلًّا يُخَيِّمُ عَلَى ٱلمَكانِ . كانَ ٱلظِّلُّ لِسَمَكةِ قِرْشٍ رَماديَّةٍ ، وَلٰكِنَّها كانَتْ مِنَ ٱلأَسْماكِ ٱلصَّديقةِ ، وَما لَبِثَتْ أَنِ ٱنْصَرَفَتْ . وَكانَ لا بُدَّ لي مِنَ ٱلصُّعودِ إِلى ٱلسَّطْحِ لِلتَّنَفُّسِ مِنْ جَديدٍ

غُصْتُ سِتَّ مَرَّاتٍ ، وَكُنْتُ في كُلِّ مَرَّةٍ أَعْمَلُ بِسُرْعَةٍ لِانْتِزاعِ ٱلْمَحارَةِ مِنَ ٱلصَّخْرَةِ ٱلَّتي ٱلْتَصَقَتْ بِها مُنْذُ زَمَنٍ بَعيدٍ ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ انْتِزاعَها لَيْسَ سَهْلًا .

لَمْ يَكُنِ ٱلضَّوْءُ كافِيًا بَعْدَ ٱلظُّهْرِ ، وَكانَتِ ٱلدِّماءُ تَسيلُ مِنْ جُرْحٍ في يَدي ، وَعَيْنايَ تُؤْلِمانِني بِسَبَبِ مُلوحَةِ مِياهِ ٱلْبَحْرِ .

جَلَسْتُ في ٱلْقارِبِ أُفَكِّرُ في ٱلسَّاعاتِ ٱلَّتي أَضَعْتُها دُونَ فائِدَةٍ ، وَتَذَكَّرْتُ ٱلإِسْبيلِيَّ وَقِصَّةَ لُؤْلُؤَتِهِ ٱلْكَبيرَةِ ٱلَّتي وَجَدَها (أَوْ قالَ إِنَّهُ وَجَدَها) في ٱلْخَليجِ ٱلْعَرَبِيِّ .

أَخَذْتُ نَفَسًا عَميقًا جِدًّا وَغُصْتُ مِنْ جَديدٍ .

بِأَوَّلِ ضَرْبَةٍ مِنَ ٱلسِّكِّينِ نَزَعْتُ ٱلْمَحارَةَ فَسَقَطَتْ عَلى جانِبِها ، وَلَفَفْتُ عَلَيْها ٱلْحَبْلَ مَرَّتَيْنِ وَصَعِدْتُ إِلى ٱلْقارِبِ ، وَجَذَبْتُها إِلَيْهِ . وَلٰكِنَّها كانَتْ مِنَ ٱلثِّقَلِ بِحَيْثُ لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَرْفَعَها إِلى ٱلْقارِبِ ، فَرَبَطْتُها في مُؤَخِّرَتِهِ وَعادَرْتُ ٱلْكَهْفَ .

شاهَدْتُ سُوتُو لُوزُون واقِفًا بَيْنَ ٱلأَشْجارِ عَلى ٱلْجانِبِ ٱلآخَرِ مِنَ ٱلْبُحَيْرَةِ . لَقَدْ ظَلَّ واقِفًا هٰكَذا طَوالَ ٱلْيَوْمِ وَعَيْناهُ مُثَبَّتَتانِ عَلَى ٱلْكَهْفِ .

كانَ يُخاطِبُ شَيْطانَ ٱلْبَحْرِ قائِلًا : « أَنا لَمْ أُوافِقْ عَلى ذَهابِهِ إِلى ٱلْكَهْفِ ، وَأَرْجو أَلّا تَغْضَبَ مِنّي . »

أَمّا أَنا فَقَدْ كُنْتُ عَلى يَقينٍ أَنَّهُ لَنْ يُحاوِلَ إِنْقاذي لَوْ أَشْرَفْتُ عَلَى ٱلْغَرَقِ . أَمّا إِذا وَجَدْتُ لُؤْلُؤَةً فَسَيُقْتَسَمُ ثَمَنُها مَعي . وَلَنْ يَغْضَبَ مِنْهُ شَيْطانُ ٱلْبَحْرِ لِأَنَّهُ لَمْ يَشْتَرِكْ مَعي في صَيْدِها .

عِنْدَما وَصَلْتُ إِلى ٱلشَّاطِئِ ، اتَّجَهَ نَحْوي مُتَظاهِرًا بِعَدَمِ ٱلْمُبالاةِ بِما أَكونُ قَدْ وَجَدْتُ ، كَيْ يُظْهِرَ لِشَيْطانِ ٱلْبَحْرِ وَأَصْدِقائِهِ أَنْ لا عَلاقَةَ لَهُ بِما اصْطَدْتُ .

جَذَبْتُ ٱلْمَحارَةَ حَتَّى ٱلرِّمالِ .

أَبْدى دَهْشَتَهُ قائِلًا : « إِنَّها مَحارَةٌ كَبيرَةٌ . لَمْ أَرَ في حَياتي أَكْبَرَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمَحارَةِ . إِنَّها جَدَّةُ كُلِّ ٱلْمَحارِ ٱلَّذي يَعيشُ في ٱلْبَحْرِ . »

قُلْتُ : « في ٱلْكَهْفِ مَحارٌ كَثيرٌ أَكْبَرُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمَحارَةِ . »

قالَ : « ما دامَ هُناكَ ٱلْكَثيرُ فَلَنْ يَغْضَبَ شَيْطانُ ٱلْبَحْرِ لِأَنَّكَ أَخَذْتَ مَحارَةً واحِدَةً مِنْها . »

قُلْتُ : « رُبَّما غَضِبَ بَعْضَ ٱلشَّيْءِ ، وَلٰكِنَّهُ عَلى كُلِّ حالٍ لَنْ يَغْضَبَ كَثيرًا . »

كانَ فَمُ ٱلْمَحارَةِ مُغْلَقًا ، وَكانَ مِنَ ٱلصَّعْبِ أَنْ أُدْخِلَ سِكّيني بَيْنَ حافَتَيْهِ ، فَسَأَلْتُهُ : « هَلْ تَسْمَحُ لي بِسِكّينِكَ ؟ إِنَّ سِكّيني لَمْ يَعُدْ يَصْلُحُ بَعْدَ أَنْ تَثَلَّمَ عِنْدَ ٱنْتِزاعِ ٱلْمَحارَةِ مِنَ ٱلصَّخْرَةِ . »

وَضَعَ لُوزُون يَدَهُ عَلى ٱلسِّكِّينِ وَلٰكِنَّهُ أَعادَها قائِلًا : « مِنَ ٱلأَفْضَلِ أَنْ تَسْتَخْدِمَ سِكِّينَكَ . »

أَخيرًا فَتَحْتُ ٱلمَحارةَ ، ثُمَّ أَدْخَلْتُ فيها أُصْبَعي ، فَٱصْطَدَمَتْ بِلُؤْلُؤَةٍ أَخْرَجْتُها . كانَ قُطْرُها نِصْفَ سَنْتِيمِتْرٍ تَقْرِيبًا ، ثُمَّ أَخْرَجْتُ لُؤْلُؤَةً ثانِيةً بِنَفْسِ ٱلحَجْمِ ، ثُمَّ ثالِثةً .

أَقْبَلَ لُوزُون نَحْوي وَشَعَرْتُ بِأَنْفاسِهِ تَلْفَحُ رَقَبَتي .

دَفَعْتُ بِيَدي بِبُطْءٍ إِلى أَعْماقِ جِسْمِ ٱلمَحارةِ فَأَحْسَسْتُ بِجِسْمٍ صُلْبٍ . وَكانَ جِسْمًا كَبيرًا ، وَأَكْبَرَ مِنْ أَنْ يَكونَ لُؤْلُؤَةً . أَخْرَجْتُهُ وَنَظَرْتُ إِلَيْهِ في ضَوْءِ ٱلشَّمْسِ ظانًّا أَنَّهُ حَجَرٌ تَسَلَّلَ إِلى داخِلِ ٱلمَحارةِ .

كانَ مُسْتَديرًا وَفي لَوْنِ ٱلدُّخانِ ، وَمَلأَ كَفَّ يَدي . وَعِنْدَ ما تَخَلَّلَهُ ضَوْءُ ٱلشَّمْسِ أَضْفَى عَلَيْهِ لَوْنًا فِضِّيًّا . إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ حَجَرًا إِذًا . إِنَّهُ لُؤْلُؤَةُ ٱلسَّماءِ ٱلعَظيمةُ .

قالَ لُوزُون بِصَوْتٍ خافِتٍ : « يا إِلٰهي ! يا إِلٰهي ! »

مَزَّقْتُ قِطْعةً مِنْ قَميصي ، وَوَضَعْتُ فيها ٱللُّؤْلُؤَةَ ، وَمَدَدْتُ يَدي بِها إِلَيْهِ قائِلًا : « نِصْفُها لَكَ . فَتَراجَعَ إِلى ٱلوَراءِ خائِفًا ، فَسَأَلْتُهُ : « هَلْ تُريدُني أَنْ أَحْتَفِظَ بِها حَتّى نَعودَ إِلى لاباز ؟ »

أَجابَني : « نَعَمْ ، مِنَ ٱلأَفْضَلِ لَكَ أَنْ تُبْقِيَها مَعَكَ . »

سَأَلْتُهُ : « مَتى نَعودُ ؟ »

قالَ : « فَوْرًا ! إِنَّ شَيْطانَ ٱلبَحْرِ غائِبٌ ، وَلٰكِنَّهُ سَيَعودُ ، وَسَيُخْبِرُهُ أَصْدِقاؤُهُ عَنِ ٱللُّؤْلُؤَةِ . »

الفصل السابع

شيطان البحر يتبعني

لَمْ نَنْتَظِرْ حَتَّى نَأْكُلَ ، بَلْ أَنْزَلْتُ القارِبَ إلى الماءِ ، وَذَهَبَ لُوزُون إلى كُوخِهِ وَأَحْضَرَ قَلِيلًا مِنَ الكَعْكِ .

عِنْدَ مُرورِنا أَمامَ الكَهْفِ لَمَسَ قُبَّعَتَهُ وَتَمْتَمَ بِبَعْضِ الكَلِماتِ الخافِتَةِ .

كانَ القَمَرُ ساطِعًا ، وَعِنْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ كُنَّا عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْ خَلِيجِ بِشِلِنْك ، وَاسْتَطَعْنا أَنْ نَرَى أَضْواءَ مَدِينَةِ لاباز عَلَى بُعْدٍ . وَفَجْأَةً نَظَرَ لُوزُون خَلْفَهُ ، وَكانَ قَدْ كَرَّرَ ذٰلِكَ عِدَّةَ مَرَّاتٍ مُنْذُ أَنْ غادَرْنا البُحَيْرَةَ . وَرَفَعَ ذِراعَهُ وَأَشارَ ، ثُمَّ قالَ بِصَوْتٍ هادِئٍ : « شَيْطانُ البَحْرِ ! »

رَأَيْتُ خَلْفَنا عَلَى مَسافَةٍ طَوِيلَةٍ ما كانَ يَعْنِيهِ — رَأَيْتُ شَيْئًا ضَخْمًا يَتَحَرَّكُ في الماءِ

قُلْتُ . « إِنَّها سَمَكَةٌ ، وَلٰكِنَّها لَيْسَتْ شَيْطانَ البَحْرِ . لَقَدْ رَأَيْتُها مِنْ قَبْلُ .. رَأَيْتُها الأُسْبُوعَ الماضِي . »

قالَ : « إِنَّهُ شَيْطانُ البَحْرِ ! » وَأَدارَ القارِبَ نَحْوَ الشَّاطِئِ قائِلًا : « سَنَذْهَبُ إلى بِشِلِنْك . »

قُلْتُ : « وَلٰكِنَّ لاباز لَيْسَتْ بَعِيدَةً . »

أَجابَ : « إِنَّها بَعِيدَةٌ جِدًّا وَلَنْ نَصِلَها أَبَدًا . »

عَمِلَ بِكُلِّ قُوَّتِهِ ، وَبَدا القارِبُ وَكَأَنَّهُ يَقْفِزُ فَوْقَ الماءَ . لَقَدِ اعْتَقَدَ أَنَّ شَيْطانَ البَحْرِ يَتْبَعُنا حَتَّى يَسْتَرِدَّ اللُّؤْلُؤَةَ الَّتِي سَرَقْتُها . وَجَدَّفْتُ بِكُلِّ قُوَّتِي ، وَفَكَّرْتُ في اللُّؤْلُؤَةِ الكَبِيرَةِ الَّتِي كُنْتُ أَحْتَفِظُ بِها في قَمِيصِي . وَفَكَّرْتُ في الإِشْبِيلِيِّ وَمَدَى دَهْشَتِهِ عِنْدَما يَراها . وَتَساءَلْتُ : « ماذا سَيَقُولُ أَبِي وَكُلُّ أَهْلِ المَدِينَةِ ؟ »

وَبَيْنَما نَحْنُ نَعْبُرُ مَدْخَلَ خَلِيجِ بِشِلِنْك سَأَلَنِي : « هَلْ تَرَى شَيْطانَ البَحْرِ ؟ »

أَجَبْتُ : « كَلَّا ! لا أَراهُ . »

فَجْأَةً دَوَّى صَوْتٌ مُرْعِبٌ ، وَكَأَنَّما انْطَلَقَتْ عَلَيْنا السَّماءُ ، وَارْتَفَعَ القارِبُ ، ثُمَّ انْقَلَبَ رَأْسًا عَلَى عَقِبٍ ، وَقَذَفَ بِي في الماءِ . وَارْتَفَعَتِ الأَمْواجُ الهائِلَةُ تَتَلاطَمُ فَوْقَ رَأْسَيْنا .

لَمْ أَسْتَطِعْ رُؤْيَةَ لُوزُون ، وَلٰكِنِّي سَمِعْتُ صُراخَهُ . وَكانَ كُلُّ تَفْكِيرِي مُنْحَصِرًا في اللُّؤْلُؤَةِ ، فَوَضَعْتُ يَدِي في قَمِيصِي وَوَجَدْتُها .

سَبَحْتُ إلى الشَّاطِئِ ، وَكانَ لُوزُون قَدْ سَبَقَنِي إِلَيْهِ . وَوَقَفْتُ عَلَى الشَّاطِئِ وَأَخْرَجْتُ لَهُ اللُّؤْلُؤَةَ حَتَّى يُدْرِكَ أَنَّها في أَمانٍ .

قالَ : « ارْمِها في البَحْرِ . إِنَّ شَيْطانَ البَحْرِ يَنْتَظِرُها وَلَنْ يَهْدَأَ حَتَّى يَسْتَرِدَّها . »

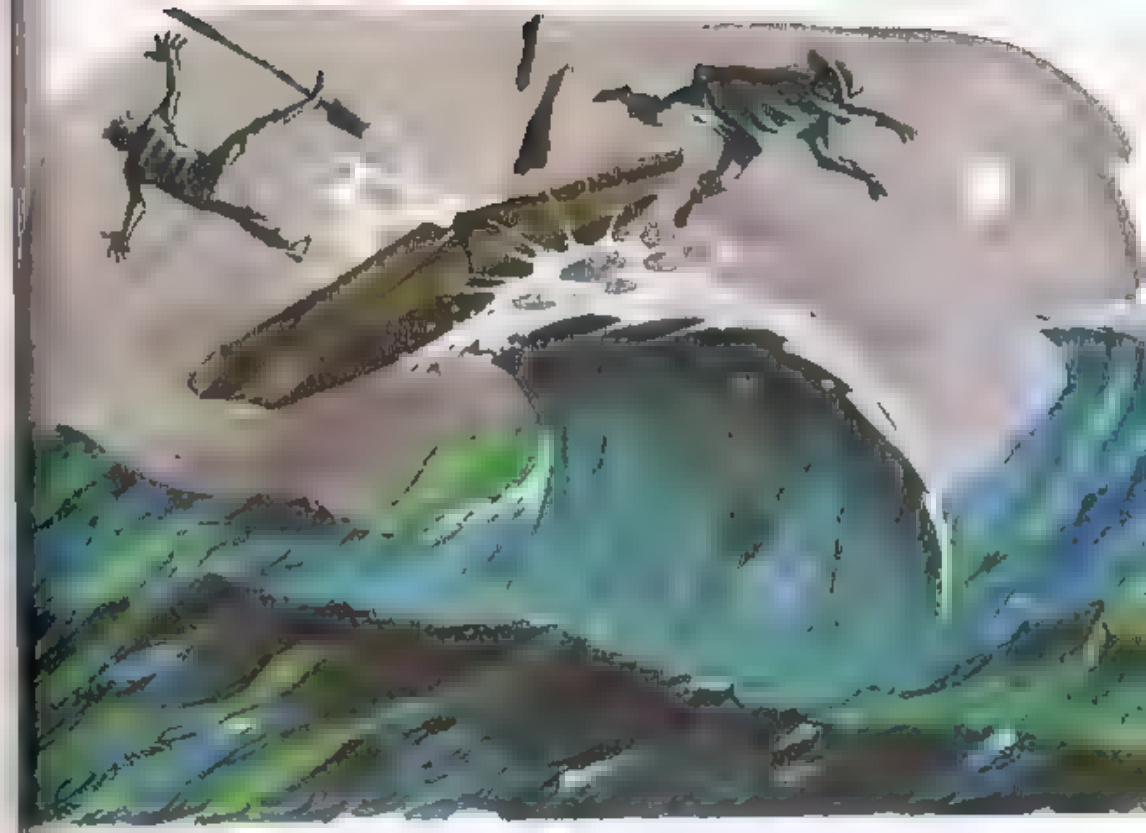

كانَ ٱلخَليجُ هادِئًا ، وَلَمْ أَرَ شَيْئًا سِوَى ٱلقارِبِ ٱلمُحَطَّمِ . وَلَمْ يَكُنْ هُناكَ أَثَرٌ لِشَيْطانِ ٱلبَحْرِ .

قُلْتُ : « إِنَّ ٱللُّؤْلُؤَةَ مَعَنا ، وَما زِلْنا أَحْياءً . إِذا سِرْنا بِسُرْعَةٍ وَصَلْنا إِلى لاباز قَبْلَ طُلوعِ ٱلنَّهارِ . »

قالَ : « لَنْ أَذْهَبَ إِلى هُناكَ بِٱللُّؤْلُؤَةِ ، وَسَأَبْقى هُنا حَتّى ٱلصَّباحِ لِأَسْتَعيدَ ٱلقارِبَ . إِنَّ ٱللُّؤْلُؤَةَ تَخُصُّكَ أَنْتَ ، فَأَنا لَمْ أَجِدْها وَلا عَلاقَةَ لي بِها . » وَٱبْتَعَدَ عَنّي كَما لَوْ كُنْتُ أَحْمِلُ في يَدي شَرًّا مُسْتَطيرًا .

قُلْتُ لَهُ : « إِنَّها تُساوي أَمْوالًا طائِلَةً وَسَتُغَيِّرُ رَأْيَكَ . »

قالَ : « أَبَدًا ! لَنْ أُغَيِّرَ رَأْيي أَبَدًا ! »

قُلْتُ لَهُ : « لَقَدْ تَرَكْتُ ثَلاثَ لآلِئَ هُناكَ . »

قالَ : « سَأُلْقي بِها إِلى ٱلبَحْرِ . »

قُلْتُ : « اِفْعَلْ ما شِئْتَ . »

قالَ : « عَلَيْكَ أَنْ تَقْذِفَ بِٱللُّؤْلُؤَةِ ٱلكَبيرَةِ في ٱلبَحْرِ أَيْضًا ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَسَوْفَ يَسْتَرِدُّها شَيْطانُ ٱلبَحْرِ يَوْمًا ، وَسَوْفَ يَأْخُذُ حَياتَكَ مَعَها . »

تَبادَلْنا ٱلتَّحِيَّةَ ، وَسِرْتُ بِحِذاءِ ٱلشّاطِئِ في ٱتِّجاهِ مَدينَةِ لاباز ، وَكانَتْ عَلى بُعْدِ سِتَّةَ عَشَرَ كيلو مِتْرًا تَقْريبًا وَبَلَغْتُها قَبْلَ طُلوعِ ٱلنَّهارِ .

الفَصْلُ الثّامِنُ

اثْنانِ وَسِتُّونَ قيراطًا

وَصَلْتُ لاباز قَبْلَ طُلوعِ النَّهارِ ، وَذَهَبْتُ إلى مَكْتَبِ سالازار وَوَلَدِهِ ، فَدَخَلْتُهُ وَأَخْرَجْتُ اللُّؤْلُؤَةَ مِنْ قِطْعَةِ القُماشِ الَّتي قَطَعْتُها مِنْ قَميصي ، وَوَزَنْتُها وَكانَتْ تَزِنُ اثْنَيْنِ وَسِتّينَ قيراطًا .

أَعَدْتُ اللُّؤْلُؤَةَ إلى مَكانِها في قَميصي . وَكانَتِ الشَّمْسُ قَدْ أَشْرَقَتْ ، وَخَرَجَ النّاسُ إلى الشَّوارِعِ . وَشَرَعْتُ كَعادَتي أُحَيّي مَنْ يُقابِلُني ، وَتَوَقَّفْتُ بِالقُرْبِ مِنْ مَكْتَبِ البَريدِ لِأَتَحَدَّثَ إلى سَيِّدَةٍ تَبيعُ مَشْروباتٍ ساخِنَةً .

وَصَلْتُ مَنْزِلَنا في المَيْدانِ ، وَلِلْمَنْزِلِ بَوّابَةٌ حَديديَّةٌ تُغْلَقُ في اللَّيْلِ . وَلَمّا قَرَعْتُ جَرَسَ البابِ فَتَحَهُ الخادِمُ الهِنْدِيُّ ، فَأَلْقَيْتُ عَلَيْهِ تَحِيَّةَ الصَّباحِ وَتَوَجَّهْتُ إلى المَطْبَخِ ، وَتَناوَلْتُ وَجْبَةَ إفْطارٍ كَبيرَةً كَأَنَّ شَيْئًا لَمْ يَحْدُثْ ، وَكَأَنّي لا أَمْلِكُ أَجْمَلَ لُؤْلُؤَةٍ وُجِدَتْ في بَحْرِ فيرْميليون .

دَهَسْتُ إلى غُرْفَتي وَرَقَدْتُ في فِراشي ، ثُمَّ نَهَضْتُ وَوَضَعْتُ اللُّؤْلُؤَةَ في مَكانٍ أَمينٍ تَحْتَ رَأْسي مُباشَرَةً ، وَعُدْتُ إلى فِراشي وَتَهَيَّأْتُ لِلنَّوْمِ . حاوَلْتُ أَنْ أُبْعِدَ عَنْ ذِهْني اللُّؤْلُؤَةَ وَما سَيَقولُهُ أَبي وَكَذَلِكَ الإشْبيليُّ . ثُمَّ تَذَكَّرْتُ أَنّي لَمْ أُغْلِقْ بابَ مَكْتَبِنا ، فَنَهَضْتُ وَوَضَعْتُ اللُّؤْلُؤَةَ في قَميصي ، وَانْطَلَقْتُ إلى مَكْتَبِنا .

عِنْدَما مَرَرْتُ بِبائِعَةِ المَشْروباتِ السّاخِنَةِ بادَتْني ، وَكانَتْ تَبيعُنا أَحْيانًا بَعْضَ حَبّاتِ اللُّؤْلُؤِ الصَّغيرَةِ . وَكانَتْ تَدُسُّ أَنْفَها في كُلِّ شَيْءٍ ، وَتَوَدُّ أَنْ تَعْرِفَ كُلَّ ما يَجْري في لاباز .

قالَتْ : « إِنَّكَ تَروحُ وَتَجيءُ كَثيرًا هٰذا الصَّباحَ . »

قُلْتُ : « نَعَمْ ، إِنَّهُ صَباحٌ جَميلٌ يُشَجِّعُ عَلى السَّيْرِ . »

قالَتْ : « اقْتَرِبْ . هَلْ تَعْرِفُ كانْتو الصَّيّادَ الَّذي يُقيمُ في بِشِلِنْك ؟ »

أَجَبْتُها : « نَعَمْ ، أَعْرِفُهُ . »

قالَتْ : « لَقَدْ مَرَّ مِنْ هُنا حالًا وَأَخْبَرَني بِالعُثورِ عَلى لُؤْلُؤَةٍ كَبيرَةٍ . هَلْ سَمِعْتَ بِذٰلِكَ ؟ »

أَجَبْتُ : « إِنَّ الحَديثَ عَنِ العُثورِ عَلى لُؤْلُؤَةٍ كَبيرَةٍ نَسْمَعُهُ كُلَّ أُسْبوعٍ ، ثُمَّ يَتَبَيَّنُ لَنا أَنَّ القِصَّةَ وَهْميَّةٌ . »

كُنْتُ حَريصًا أَلّا تَعْلَمَ هِيَ أَوْ سِواها بِخَبَرِ اللُّؤْلُؤَةِ حَتّى يَعودَ والِدي ، فَهُوَ الَّذي يُقَرِّرُ كَيْفَ وَمَتى يُذاعُ الخَبَرُ في المَدينَةِ . وَلَيْسَ مِنْ حَقِّي كَابْنِهِ أَنْ أَسْلُبَهُ هٰذا الشَّرَفَ ؛ لِذا خَيَّبْتُها وَانْصَرَفْتُ .

عِنْدَما وَصَلْتُ إلى آخِرِ الشّارِعِ ، شاهَدْتُ حَشْدًا مِنَ النّاسِ يَتَجَمَّعُ أَمامَ « مَكْتَبِ سالازار وَوَلَدِهِ » فَقَرَّرْتُ العَوْدَةَ إلى المَنْزِلِ ، وَلٰكِنّي سَمِعْتُ أَحَدَهُمْ يُنادي : « رامون ! » الْتَفَتَ الجَميعُ نَحْوي ، وَأَدْرَكْتُ أَنّي لَو

اتَّجَهْتُ إلى مَنْزِلي لِتَبِعوني ، وَلَمْ أَرَ بُدًّا مِنَ الذَّهابِ إلَيْهِمْ .

صاحَ البَعْضُ : « اللُّؤْلُؤَةَ ! اللُّؤْلُؤَةَ ! »

وَصَرَخَ الآخرونَ : « أَرِها لَنا ! أَرِنا إيَّاها ! »

تَظاهَرْتُ بِالدَّهْشَةِ ، وَسَأَلْتُ : « أَيُّةُ لُؤْلُؤَةٍ ؟ » وَدَخَلْتُ المَكْتَبَ وَأَغْلَقْتُ البابَ ، ثُمَّ وَضَعْتُ اللُّؤْلُؤَةَ في الخِزانَةِ وَجَلَسْتُ إلى المَكْتَبِ .

أَطَلَّ صَبِيٌّ مِنَ النّافِذَةِ الصَّغيرَةِ المَوْجودَةِ بِالحائِطِ ، وَكانَ يَعْتَلي ظَهْرَ أَحَدِ الرِّجالِ ، وَبَدَأَ يُخْبِرُ الحَشْدَ بِما يُشاهِدُهُ ، وَعِنْدَما فَتَحْتُ السِّجِلَّ قالَ : « لَقَدْ فَتَحَ سِجِلًّا . »

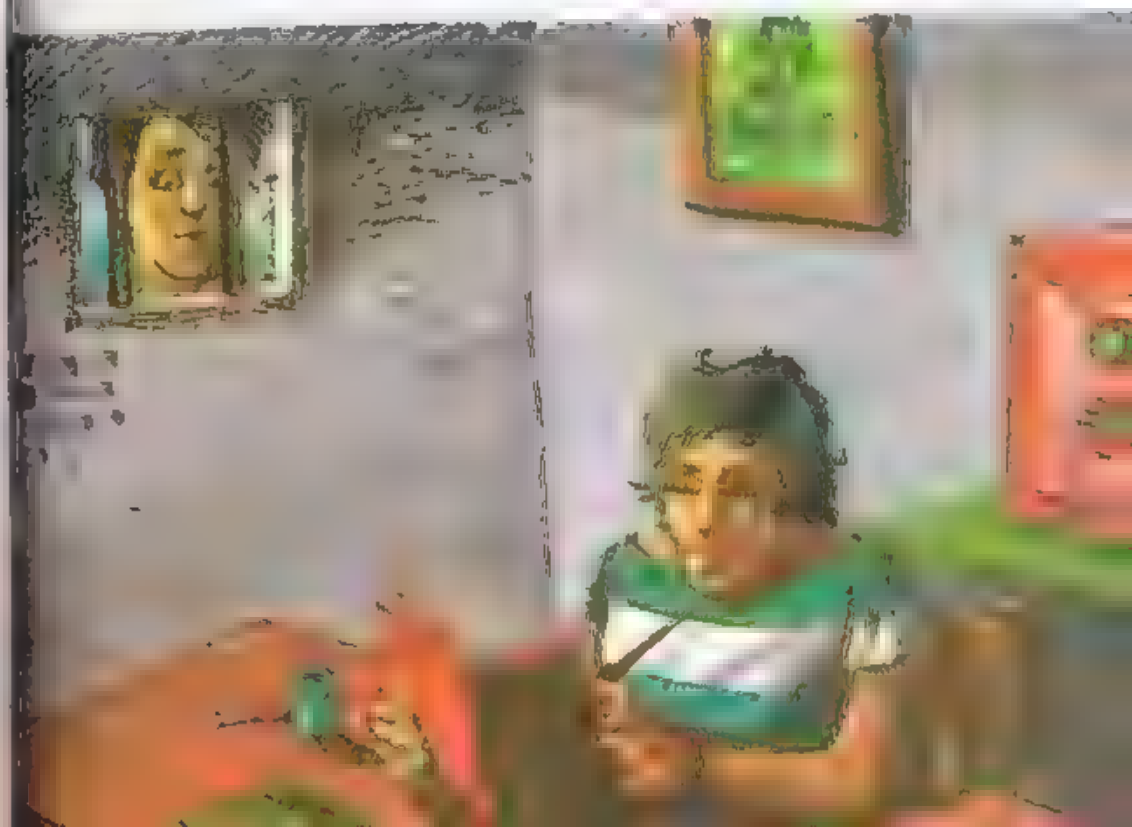

تَزايَدَ الحَشْدُ حَتَّى امْتَلأَ الشّارِعُ تَمامًا عِنْدَ مُنْتَصَفِ النَّهارِ ، وَتَعِبَ صَبِيُّ النّافِذَةِ وَانْصَرَفَ . وَلٰكِنّي جَلَسْتُ إلى مَكْتَبي وَأَخَذْتُ أَكْتُبُ . كُنْتُ أَكْتُبُ أَيَّ شَيْءٍ يَخْطُرُ بِبالي ، وَأُفَكِّرُ في اللُّؤْلُؤَةِ العَظيمَةِ .

قُلْتُ أُحَدِّثُ نَفْسي : « آمُلُ أَنْ تَصِلَ سُفُنُنا قَبْلَ أَنْ أُضْطَرَّ إلى مُغادَرَةِ المَكْتَبِ وَمُواجَهَةِ الحَشْدِ مَرَّةً ثانِيَةً . »

وَصَلَتِ السُّفُنُ في تَمامِ السّاعَةِ الثّانِيَةِ ، وَتَعَجَّبَ أَبي لِتَجَمْهُرِ النّاسِ أَمامَ مَكْتَبِنا ، لِذا كانَ أَوَّلَ مَنْ هَبَطَ مِنَ السَّفينَةِ . وَجاءَ راكِضًا إلى الشّاطِئِ . وَعِنْدَما فَتَحْتُ البابَ دَخَلَ مُسْرِعًا وَسَأَلَني : « ماذا حَدَثَ ؟ »

عادَ الصَّبِيُّ يُطِلُّ مِنَ النّافِذَةِ ، وَلٰكِنّي فَتَحْتُ الخِزانَةَ وَأَخْرَجْتُ اللُّؤْلُؤَةَ وَناوَلْتُها لِأَبي قائِلًا : « هٰذِهِ ! لَقَدْ وَجَدْتُها . »

أَخَذَها أَبي وَقَلَّبَها في يَدِهِ ، وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَقُلْ شَيْئًا وَكَأَنَّهُ لَمْ يُصَدِّقْ ما رَأى .

قالَ بَعْدَ قَليلٍ : « هٰذِهِ لَيْسَتْ لُؤْلُؤَةً . »

قُلْتُ : « بَلْ هِيَ لُؤْلُؤَةٌ . »

قالَ : « كَلّا ! لا يُوجَدُ في كُلِّ بِحارِ العالَمِ لُؤْلُؤَةٌ بِهٰذا الحَجْمِ . » ثُمَّ نَظَرَ إلى اللُّؤْلُؤَةِ قائِلًا : « لَقَدْ صَنَعْتَها بِيَدِكَ . لَقَدْ لَصَقْتَ عِدَّةَ لآلِئَ مَعًا وَشَكَّلْتَها عَلى هَيْئَةِ كُرَةٍ . »

قُلْتُ : « كَلّا ! إنَّها لُؤْلُؤَةٌ . لُؤْلُؤَةٌ حَقيقِيَّةٌ وَجَدْتُها . »

صاحَ صَبِيُّ ٱلنَّافِدةِ إلى ٱلجَمْهورِ قائلًا : « إنَّها لُؤْلُؤةٌ كَبيرةٌ عَظيمةٌ ! أكْبَرُ لُؤْلؤةٍ في ٱلعالَمِ ! » صاحَ ٱلنَّاسُ في ٱلشَّارِعِ .

حَمَلَ أبي ٱللُّؤْلُؤةَ في ٱلصَّوْءِ ، وَقَلَّبَها بِبُطْءٍ بَيْنَ أصابِعِهِ ، ثُمَّ فَتَحَ ٱلبابَ وَرَفَعَها إلى أعْلَى حَتَّى يُشاهِدَها ٱلجَميعُ .

سادَ ٱلسُّكونُ ، وَلَمْ أسْمَعْ سِوَى صَوْتِ ٱلأمْواجِ ٱلمُتَكَسِّرةِ عَلَى ٱلشَّاطِئِ ، عِنْدَئِذٍ أغْلَقَ أبي ٱلبابَ وَنَظَرَ إليَّ قائلًا : « يا إلَهي ! »

قالَها ثَلاثَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ جَلَسَ وَثَبَّتَ عَيْنَيْهِ عَلَى ٱللُّؤْلُؤةِ ٱلسَّوْداءِ ٱلعَظيمةِ ٱلَّتي مَلَأَتْ يَدَهُ .

الفَصْلُ ٱلتَّاسِعُ

الشَّائِبَةُ

الشَّائِبَةُ هِيَ ما يُفْسِدُ ٱلشَّيْءَ ، لِأنَّها تَنْتَقِصُ مِنْ كَمالِهِ وَشائِبَةُ ٱللُّؤْلُؤةِ عَلامَةٌ أوْ بُقْعَةٌ تُفْسِدُها ، وتُقَلِّلُ مِنْ جَمالِها .

عِنْدَما عُدْتُ مَعَ أبي إلى مَنْزِلِنا في ذٰلِكَ ٱلمَساءِ تَبِعَنا حَشْدٌ كَبيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ . وكانَ خَبَرُ عُثورِ رامون بْن سالْارار عَلى لُؤْلُؤةٍ عَظيمةٍ قَدْ ذاعَ في ٱلمَدينةِ وَفي ٱلرِّيفِ ، وَجاءَ ٱلمُزارِعونَ مِنْ فَوْقِ ٱلتِّلالِ ، وَكَذٰلِكَ ٱلصَّيَّادونَ وَٱلغَوَّاصونَ ، وٱلتُّجَّارُ مِنْ مَحَلَّاتِهِمْ وَٱلنِّساءُ وَٱلأطْفالُ . جاءوا مِنْ كُلِّ مَكانٍ ، وَتَبِعونا مَعَ ٱلحَشْدِ . جاءَ ٱلجَميعُ ما عَدا ٱلإشْبيلِيَّ . نَعَمْ ، ما عَدا ٱلإشْبيلِيَّ ! كانَ ٱلكُلُّ يُغَنِّي وَيَهْتِفُ لِلُؤْلُؤةِ ٱلعَظيمةِ . إنَّ مَدينةَ لاباز تَعيشُ عَلى صَيْدِ ٱللُّؤْلُؤِ وَبَيْعِهِ ، لِذا يَهْتَمُّ كُلُّ مَنْ يَسْكُنُ فيها وَفي رِيفِها بِكُلِّ ما يَجيءُ مِنَ ٱلبَحْرِ .

تَبِعَنا ٱلحَشْدُ حَتَّى نَوّابَةِ ٱلمَنْزِلِ ، وَظَلَّ ٱلنَّاسُ واقِفينَ في ٱلخارِجِ بَعْدَ أنْ أغْلَقْنا ٱلأبْوابَ ، وَأخَذَ عَدَدُهُمْ يَتَزايَدُ .

كانَ أبي يُريلُ ٱلشَّوائِبَ مِنَ ٱللُّؤْلُؤِ داخِلَ حُجْرةٍ صَغيرةٍ في بَيْتِنا . فَأخَذَ ٱللُّؤْلُؤةَ ٱلعَظيمةَ وَدَخَلَ هٰذِهِ ٱلحُجْرةَ ، وَأغْلَقَ بابَها حَتَّى لا يَرَى ٱلخَدَمُ ما دا يَفْعَلُ .

قامَ بوَزْنِها في أوَّلِ الأمْرِ قائلًا : « نَعَمْ إنَّها تَزِنُ اثْنَيْنِ وَ سِتِّينَ قِيراطًا ، وَهِيَ مُسْتديرةٌ تَمامًا وَلٰكِنْ بها شائِبةٌ . »

وَضَعَها أمامَ الضَّوْءِ قائلًا : « أُنْظُرْ . سَوْفَ تَرى شائِبةً صَغيرةً جِدًّا . أعْتَقِدُ أنَّها بِالقِشْرةِ الخارِجيَّةِ أوْ تَحْتَها ، فأنا لَسْتُ مُتَأكِّدًا . »

كُنْتُ قَدْ رَأَيْتُ هٰذِهِ الشَّائِبةَ ، وَلٰكِنّي لَمْ أُعِرْها أيَّ اهْتِمامٍ لِصِغَرِها . قُلْتُ لَهُ : « أخْشى عِنْدَ إزالَتِكَ شائِبةَ اللُّؤْلُؤةِ أنْ تَجِدَها غائِرةً جِدًّا . »

قالَ : « إذا كانَتِ الشَّائِبةُ غائِرةً ، فَاللُّؤْلُؤةُ لَيْسَتْ عَظيمةً . ماذا تُفَضِّلُ : أنْ تَمْتَلِكَ أعْظَمَ لُؤْلُؤةٍ ، أم مُجَرَّدَ لُؤْلُؤةٍ جَيِّدةٍ ؟ »

قُلْتُ : « أُريدُ أعْظَمَ لُؤْلُؤةٍ – لُؤْلُؤةَ السَّماءِ . »

لٰكِنّي لَمْ أكُنْ أرْغَبُ أنْ يُزيلَ أبي شائِبةَ اللُّؤْلُؤةِ ، فَكَمْ شاهَدْتُ لُؤْلُؤًا جَميلًا يَتَحَطَّمُ في هٰذِهِ العَمَلِيَّةِ . لِذٰلِكَ قُلْتُ : « لَوْ كانَتِ الشَّائِبةُ عَميقةً فَلَنْ نَسْتَفيدَ شَيْئًا ، أمَّا إذا كانَتِ الشَّائِبةُ صَغيرةً ، فَرُبَّما لا يُلاحِظُها المُشْتَري . »

قالَ أبي : « كَلَّا ، إنَّ المُشْتَرِيَ يَرى الشَّائِبةَ قَبْلَ أيِّ شَيْءٍ آخَرَ . حَتّى إذا كانَتِ اللُّؤْلُؤةُ تَزِنُ سِتِّينَ قِيراطًا وَمُسْتديرةً وَرائِعةَ اللَّوْنِ ، سَوْفَ يُغْفِلُ كُلَّ هٰذا وَيَتَحَدَّثُ فَقَطْ عَنْ عَيْبِها . أحْضِرْ مِصْباحًا آخَرَ وَقَرِّبْ هٰذا ، ثُمَّ ادْعُ اللهَ أنْ يُرْشِدَ يَدي وَهِيَ مُمْسِكةٌ بِالسِّكِّينِ . »

قَرَّبْتُ المِصْباحَ وَأحْضَرْتُ مِصْباحًا آخَرَ ، وَكانَ قَلْبي يَخْفُقُ بِشِدَّةٍ ،

وَأصْواتُ الغِناءِ تَأْتينا مِنَ النّافِذةِ ، فَقُلْتُ في نَفْسي : « بَعْدَ قَليلٍ لَنْ يَكونَ هُناكَ ما نُغَنّي لَهُ . »

بَدَأْتُ أُصَلّي وَلٰكِنَّ الكَلِماتِ احْتَبَسَتْ في حَلْقي ، وَكُنْتُ طَوالَ الوَقْتِ أسْمَعُ صَوْتَ لُوزُون : « سَوْفَ يَسْتَعيدُها شَيْطانُ البَحْرِ يَوْمًا ما . سَوْفَ يَأْخُذُها شَيْطانُ البَحْرِ . » وَفَكَّرْتُ : « هَلْ سَتَتَحَقَّقُ هٰذِهِ الكَلِماتُ ؟ هَلْ سَيُحَطِّمُ أبي اللُّؤْلُؤةَ بِسِكِّينِهِ ؟ »

أمْسَكَ أبي سِكِّينًا صَغيرًا بِيَدٍ ، وَأمْسَكَ اللُّؤْلُؤةَ بِيَدِهِ الأُخْرى ، ثُمَّ وَضَعَ حافَةَ السِّكِّينِ عَلى اللُّؤْلُؤةِ ، وَسَمِعْتُ صَوْتًا خافِتًا بَيْنَما كانَ السِّكِّينُ يَقْطَعُ القِشْرةَ الخارِجيَّةَ ، ثُمَّ انْفَصَلَتِ القِشْرةُ . وَكانَتْ أرَقَّ مِنْ وَرَقٍ وَرَقةٍ ثُمَّ زادَ طُولُها ، وَأخيرًا سَقَطَتْ عَلى المِنْضَدةِ .

ارْتَفَعَتْ أصْواتُ الغِناءِ في الخارِجِ ، أمّا داخِلَ الغُرْفةِ فَلَمْ يَكُنْ سِوى صَوْتِ أبي وَهُوَ يَلْتَقِطُ أنْفاسَهُ مِنْ جَديدٍ .

وَضَعَ سِكِّينَهُ وَحَمَلَ اللُّؤْلُؤةَ وَنَظَرَ إلَيْها طَويلًا عَلى ضَوْءِ المِصْباحِ ، وَكُنْتُ أُراقِبُ مَلامِحَ وَجْهِهِ الَّتي لَمْ يَطْرَأْ عَلَيْها أيُّ تَغْييرٍ .

أخيرًا قُلْتُ : « حَسَنًا ؟ ماذا تَرى ؟ »

لَمْ يُجِبْني ، وَلٰكِنَّهُ هَزَّ رَأْسَهُ ، وَالْتَقَطَ السِّكِّينَ مِنْ حَديدٍ ، وَتَطَلَّعْتُ أنا إلى السَّماءِ في الخارِجِ وَبَدَأْتُ أُصَلّي .

قالَ : « راقِبي وَأنا أعْمَلُ ؛ رُبَّما اضْطُرِرْتَ أنْ تَفْعَلَ هٰذا بِنَفْسِكِ يَوْمًا ما . »

عُدْتُ إلى المِنْضَدةِ وَأنا لا أزالُ أُصَلّي مِنْ أجْلِ بَقاءِ اللُّؤْلُؤَةِ السَّوْداءِ العَظيمةِ ، وَدارَ السُّكّينُ دَوْرَتَهُ وَشاهَدْتُ عَلى ضَوْءِ المِصْباحِ القِشْرَةَ الرَّقيقةَ مُلْقاةً عَلى المِنْضَدةِ .

وَضَعَ أبي اللُّؤْلُؤَةَ أمامَ الضَّوْءِ وأخَذَ يُقَلِّبُها عَلى كُلِّ جانِبٍ ، ثُمَّ رَفَعَها عالِيًا فَوْقَ رَأْسِهِ كَما لَوْ كانَ يُريدُ أنْ يُرِيَها لِلْعالَمِ أجْمَعَ .

أعْطاها أبي قائِلًا : « لَقَدْ زالَتِ الشّائِبَةُ ، وَفي يَدِكِ الآنَ أعْظَمُ وَأجْمَلُ لُؤْلُؤَةٍ في العالَمِ . إنَّها لُؤْلُؤَةُ السَّماءِ ! »

الفَصْلُ العاشِرُ

هَدِيَّةٌ إلى مُتْحَفِ المَدينةِ

كانَ في لاباز أرْبَعةٌ مِنْ كِبارِ تُجّارِ اللُّؤْلُؤِ ، بِالإضافةِ إلى كَثيرينَ مِنْ صِغارِ التُّجّارِ الَّذينَ لا يَبيعونَ إلّا القَليلَ مِنَ اللُّؤْلُؤِ الصَّغيرِ .

بَعْدَ أنْ أزالَ أبي شائِبَةَ اللُّؤْلُؤَةِ بِأُسْبوعٍ تَقْريبًا جاءَ التُّجّارُ الأرْبَعةُ إلى بَيْتِنا .

في أوَّلِ الأمْرِ فَكَّرَ أبي أنْ يَأْخُذَ اللُّؤْلُؤَةَ إلى مَدينةِ مِكْسيكو سيتي ، وَلٰكِنَّهُ عَدَلَ عَنْ ذٰلِكَ لِصُعوبةِ التَّعامُلِ مَعَ النّاسِ هُناكَ .

لَمْ يَكُنْ في مَدينةِ لاباز تاجِرٌ واحِدٌ ، أوْ حَتّى اثْنانِ أوْ ثَلاثَةٌ يَسْتَطيعونَ دَفْعَ المَبْلَغِ الَّذي نَطْلُبُهُ ثَمَنًا لِلُّؤْلُؤَةِ . وَلٰكِنْ كانَ في مَقْدورِ التُّجّارِ الأرْبَعةِ فَقَطْ أنْ يَدْفَعوا مَعًا ثَمَنَ اللُّؤْلُؤَةِ

جاءَ التُّجّارُ الأرْبَعةُ في وَقْتٍ مُبَكِّرٍ بَعْدَ الظُّهيرةِ وَقَدِ ارْتَدَوْا أفْخَمَ مَلابِسِهِمْ ، وَحَمَلوا مَعَهُمْ أدَواتِهِمْ لِوَزْنِ اللُّؤْلُؤَةِ وَقِياسِها ، وَكانَتْ نُقودُهُمْ مَوْضوعَةً في حَقيبةٍ . وَتَبِعَهُمْ حَشْدٌ مِنَ النّاسِ وَوَقَفوا خارِجَ البَوّابَةِ .

عادَتْ والِدَتي وَشَقيقَتي مِنْ مَدينةِ لوريتو بَعْدَ أنْ سَمِعَتا بِخَبَرِ اللُّؤْلُؤَةِ ؛ لِذا كانَتْ حُجْرَةُ الاسْتِقْبالِ مَليئَةً بِالأزْهارِ ، وَكانَ كُلُّ شَيْءٍ نَظيفًا وَبَرّاقًا .

وَضَعَ الرِّجالُ حَقيبَةَ النُّقودِ عَلى المِنْضَدةِ وَجَلَسوا دونَ أنْ يَنْطِقوا

بِكَلِمةٍ . اَلْتَفَتَ أَبي إلى حَقيبةِ اَلنُّقودِ وَقالَ : « إنَّها حَقيبةٌ صَغيرةٌ ، وَأَشُكُّ أَنَّها تَسَعُ مالًا يَكْفي لِشِراءِ لُؤْلُؤَةِ اَلسَّماءِ . »

قالَ أَرْتُورو مارْتِن ، وَهُوَ رَجُلٌ ضَخْمٌ ذو يَدَيْنِ صَغيرَتَيْنِ بَيْضاوَيْنِ : « لَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّ اَللُّؤْلُؤَةَ في حَجْمِ اَلبُرْتُقالةِ ، وَلَوْ كانَ هٰذا صَحيحًا لَكانَ ما مَعَنا مِنْ مالٍ يَزيدُ عَنْ ثَمَنِها . إذْ اَللُّؤْلُؤُ اَلكَبيرُ لا يُساوي مَبالِغَ كَبيرةً . »

أَضافَ زَميلُهُ مِيغِيل بالُوماريس ، وَهُوَ رَجُلٌ بَديٌن أَصْلَعُ : « إنَّ اَللُّؤْلُؤَ اَلكَبيرَ لا يَعيشُ طَويلًا ، وَهُوَ غالِبًا ما يَموتُ وَيَفْقِدُ بَريقَهُ قَبْلَ أَنْ يَمُرَّ عامٌ واحِدٌ . »

أَجابَ أَبي : « هٰذا حالُ اَللُّؤْلُؤِ اَلصَّغيرِ ، مِثْلُ تِلْكَ اَللُّؤْلُؤَةِ اَلَّتي بِعْتُها لَنا اَلشَّهْرَ اَلماضي . وَقَبْلَ أَنْ أُرِيَكُمْ لُؤْلُؤَةَ اَلسَّماءِ سَأَذْكُرُ لَكُمْ ثَمَنَها . إنَّهُ عِشْرونَ أَلْفَ بيزو . لا أَقَلَّ وَلا أَكْثَرَ . »

تَبادَلَ اَلرِّجالُ اَلأَرْبَعةُ اَلنَّظَراتِ وَكَأَنَّهُمْ كانوا مُتَّفِقينَ عَلى اَلثَّمَنِ اَلَّذي سَيَدْفَعونَهُ .

خَرَجَ أَبي مِنَ اَلحُجْرةِ وَعادَ وَمَعَهُ اَللُّؤْلُؤَةُ مَلْفوفَةً في قُماشٍ مِنَ اَلحَريرِ اَلأَبْيَضِ ، وَوَضَعَها فَوْقَ اَلمِنْضَدةِ . وَبَعْدَ أَنْ بَسَطَ اَلقُماشَ وَتَراجَعَ إلى اَلخَلْفِ قَليلًا حَتّى يُشاهِدَها اَلجَميعُ ، قالَ : « اَلآنَ أَيُّها اَلسّادةُ ، هٰذِهِ هِيَ لُؤْلُؤَةُ اَلسَّماءِ ! » وَتَجَمَّعَ اَلضَّوْءُ في اَللُّؤْلُؤَةِ فَغَدَتْ وَكَأَنَّها قَمَرٌ مُضيءٌ .

قالَ أَرْتُورو مارْتِن : « هٰذا ما كُنْتُ أَخْشاهُ . إنَّها أَقْرَبُ إلى اَلبُرْتُقالةِ مِنْها إلى اَللُّؤْلُؤَةِ . »

قالَ بالُوماريس : « إنَّها كَبيرةٌ ، وَلٰكِنَّ هٰذا اَلنَّوْعَ مِنَ اَللُّؤْلُؤِ عادةً ما تَكونُ حَياتُهُ قَصيرةً وَمِنَ اَلصَّعْبِ بَيْعُهُ . »

قالَ ثالِثُهُمْ : « وَلٰكِنَّنا سَوْفَ نَتَقَدَّمُ بِعَرْضٍ . »

قالَ اَلتّاجِرُ اَلرّابِعُ مُؤَكِّدًا : « نَعَمْ سَوْفَ نَتَقَدَّمُ بِعَرْضٍ . »

قالَ مارْتِن : « عَشَرَةُ آلافِ بيزو . »

أَخَذَ بالُوماريس اَللُّؤْلُؤَةَ بِيَدَيْهِ اَلبَيْضاوَيْنِ اَلصَّغيرَتَيْنِ وَنَظَرَ إلَيْها بِدِقَّةٍ

قائلًا : « أعتقدُ أنّني أرى شائبةً . عشرةُ آلافٍ كثيرٌ جدًّا . »

قالَ أبي : « ليسَ بها أيّةُ شائبةٍ ، والثّمنُ كما قلتُ عشرونَ ألفَ بيزو . »

أخذَ التُّجّارُ الآخرونَ يتناقلونَ اللؤلؤةَ فيما بينهم ، ويفحصونها جيّدًا ، ثمّ قامَ مارتِن بقياسِها ووزنِها ، وكانتِ المقاييسُ مطابقةً تقريبًا لمقاييسِنا .

قالَ : « أحدَ عشرَ ألفَ بيزو . »

قالَ أبي : « أضيفُ إليها تسعةَ آلافٍ بيزو . فأنتَ لم ترَ ولن ترى لؤلؤةً مثلَها . »

قالَ بالوماريس : « اثنا عشرَ ألفًا . »

وبعدَ ساعةٍ منَ الزّمنِ ارتفعَ الثّمنُ إلى خمسةَ عشرَ ألفًا .

بدأَ الغضبُ يتملّكُ التُّجّارَ الأربعةَ . وأحضرتْ والدتي بعضَ المشروباتِ الباردةِ وبعضَ قطعِ الكعكِ . وكنتُ أعرفُ أنّها تقبلُ عرضَ التّجّارِ ، ورأيتُها في الخارجِ تحاولُ أنْ تقنعَ أبي . فقدْ كانتْ تريدُ شراءَ عربةٍ حمراءَ تجرُّها أربعةُ جيادٍ بيضاءَ شاهدتْها في لوريتو .

وضعَ أرتورو مارتِن كوبَهُ قائلًا : « خمسةَ عشرَ ألفَ بيزو آخرُ عرضٍ لنا . »

ردَّ أبي قائلًا : « إذًا سآخذُها إلى مكسيكو سيتي . »

فقالَ بالوماريس : « لقدْ قمتَ بهذهِ الرّحلةِ الطّويلةِ إلى مكسيكو سيتي

منْ أجلِ ، ولكنّكَ اكتشفتَ أنّ التُّجّارَ هناكَ ليسوا على استعدادٍ لدفعِ الثّمانِ التي منّا ندفعُها هنا ، فعدتَ بعدَ ضياعِ الوقتِ ونفقاتِ الرّحلةِ . » ونهضَ قائلًا : « خمسةَ عشرَ ألفًا ومئتانِ وخمسونَ بيزو . هذا هوَ آخرُ عرضٍ لنا . »

غضبَ أبي ممّا قالهُ بالوماريس عنْ مكسيكو سيتي ، وقالَ : « رامون ، اذهبْ واستدعِ العمَّ غالاردو . فليحضرْ فورًا مهما كانَ الأمرُ . اذهبْ بسرعةٍ . »

وجدتُ العمَّ غالاردو نائمًا فأيقظتُهُ ، وطلبتُ منهُ مرافقتي إلى بيتِنا .

عندما بلغْنا المنزلَ سمعتُ أرتورو مارتِن يقولُ : « نعرضُ خمسمئةٍ زيادةً . » وكانَ ردُّ أبي : « الثّمنُ عشرونَ ألفَ بيزو . »

سادَ الصّمتُ عندما دخلْنا ، وكانَ بالوماريس ممسكًا باللؤلؤةِ ، فتوجّهَ إليهِ أبي واستردَّها منهُ ، ثمّ التفتَ إلى العمِّ غالاردو وانحنى لهُ تحيّةً قائلًا :

« إليكَ لؤلؤةَ السّماءِ ، نقدّمُها لكَ أنا وولدي ، لتقدّمَها بدورِكَ إلى متحفِ المدينةِ . »

سمعتُ صراخًا آتيًا منْ خارجِ الغرفةِ ، وكانَ واضحًا أنّهُ صراخُ أمّي وشقيقتي اللّتينِ كانتا تحلمانِ بأشياءَ ترغبانِ في شرائِها .

حملَ الرّجالُ الأربعةُ أدواتِهمْ وحقيبةَ النّقودِ الكبيرةَ ، ولبسوا قبّعاتِهمْ

وَانْصَرَفوا . وَنَظَرْتُ إلى والِدي فَخورًا بانْتِصارِهِ في مَعْرَكَتِهِ ضِدَّ ٱلتُّجّارِ ٱلأَرْبَعةِ .

حاوَلَ ٱلعَمُّ عالارْدو أنْ يُعَبِّرَ عَنْ شُكْرِهِ فَقالَ : « سَنُقيمُ احْتِفالًا كَبيرًا بِهٰذِهِ ٱلمُناسَبةِ . »

وَعِنْدما انْصَرَفَ غالارْدو ، دَخَلَتْ أُمّي ٱلغُرْفةَ وَٱلدُّموعُ في عَيْنَيْها وَصاحَتْ : « لَقَدْ ضاعَتِ ٱللُّؤْلُؤَةُ ٱلجَميلةُ . »

قالَ أبي : « لَمْ تَضِعْ . إنَّها سَتَكونُ في مُتْحَفِ ٱلمَدينةِ حَتّى يُشاهِدَها ٱلجَميعُ ، وَتَسْتَطيعينَ أنْتِ أيْضًا ٱلذَّهابَ إلى هُناكَ وَمُشاهَدَتِها . »

قالَتْ : « لا أَرْغَبُ في مُشاهَدَتِها ثانيةً . لَقَدْ قَدَّمْتُها لِلْمُتْحَفِ لِأَنَّكَ كُنْتَ غاضِبًا مِنَ ٱلتُّجّارِ . »

قالَ أبي : « إنَّها هَديَّةٌ مِنْ أُسْرَةِ سالازار وَوَلَدِهِ وَأَحْفادِهِما . وَسَيُبارِكُ ٱللّٰهُ هٰذِهِ ٱلأُسْرَةَ في ٱلسَّماءِ ، مِنَ ٱلآنَ وَإلى ٱلأَبَدِ . »

لَمْ تَرُدَّ والِدَتي شَيْئًا عَمّا قالَتْهُ ، وَلٰكِنْ عِنْدَما أُقيمَ ٱلاحْتِفالُ اعْتَذَرَتْ عَنْ حُضورِهِ لِشُعورِها بِصُداعٍ في رَأْسِها .

الفَصْلُ ٱلحادي عَشَرَ

اليَوْمُ ٱلعَظيمُ

بَعْدَ خَمْسةِ أيّامٍ أُقيمَ احْتِفالٌ كَبيرٌ في أكْبَرِ مَيادينِ لابار لِتَقْديمِ لُؤْلُؤَةِ

ٱلسَّماءِ إلى مُتْحَفِ ٱلمَدينةِ . وَكانَ يَوْمًا مِنْ أَعْظَمِ أَيّامِ لاباز . اِمْتَلأَ ٱلمَيْدانُ بِٱلأَزْهارِ ، وَوَقَفَتْ في وَسَطِهِ فَتاةٌ صَغيرةٌ جَميلةٌ تَرْتَدي مَلابِسَ حَريريَّةً بَيْضاءَ ، وَتُزَيِّنُ شَعْرَها بِأَزْهارٍ بَيْضاءَ ، وَتُمْسِكُ بِيَدِها ٱللُّؤْلُؤَةَ ٱلسَّوْداءَ ٱلعَظيمةَ .

وَغَصَّ ٱلمَيْدانُ بِٱلزُّوّارِ ، وَكانَ واضِحًا أَنَّ مَدينَتَنا لاباز لَمْ تَشْهَدْ مِنْ قَبْلُ مِثْلَ هٰذِهِ ٱلحُشودِ . فَقَدْ جاءَ ٱلنّاسُ سَيْرًا عَلى أَقْدامِهِمْ ، وَعَلى ظُهورِ حَميرِهِمْ وَخُيولِهِمْ مِنْ أَماكِنَ بَعيدةٍ مِثْلِ لُوريتو في ٱلشَّمالِ وَسانْتو تُوماس في ٱلجَنوبِ ، وَجاءَ آخَرونَ بِٱلقَوارِبِ مِنْ جُزُرِ بَحْرِ فيرْميليون . وَجاءَ أَيْضًا هُنودٌ مِنْ تِلالِ جِبالِ سييرًا مُورينا ٱلموحِشةِ يَرْتَدونَ جُلودَ ٱلأَرانِبِ . وَكانَ ٱلعَمُّ غالارْدو سَعيدًا بِرُؤْيَتِهِمْ .

بَدَأَ ٱلاحْتِفالُ بِأَنْ حَمَلوا ٱلفَتاةَ وَساروا بِها حَوْلَ ٱلمَيْدانِ مَرَّتَيْنِ ، وَهُمْ يَرْقُصونَ وَيُغَنّونَ ، ثُمَّ تَوَجَّهوا بِها إلى ٱلبَحْرِ حَيْثُ كانَتْ سُفُنُ سالازار راسيةً . وَكانَ أَبي قَدْ أَعَدَّ ذٰلِكَ حَتّى يُثْبِتَ أَنَّ ٱللُّؤْلُؤَةَ قَدْ حازَتْ رِضا ٱلنّاسِ ، وَأَنَّ أُسْرَةَ سالازار سَوْفَ تَزْدادُ ثَراءً وَقُوَّةً .

وَقَفَ ٱلعَمُّ غالارْدو بِجوارِ ٱلفَتاةِ ، بَيْنَما أَخَذَ ٱلنّاسُ يَلْتَفّونَ حَوْلَهُ . وَكانَتْ سُفُنُنا ٱلزَّرْقاءُ ٱلخَمْسُ تَقِفُ في مِياهِ ٱلخَليجِ ٱلهادِئَةِ ، وَقَدْ زَيَّنَتْها حِبالٌ مِنْ أَعْلامٍ مُلَوَّنَةٍ .

رَفَعَ ٱلعَمُّ غالارْدو يَدَيْهِ قائِلًا : « نَدْعوكَ يا إلٰهي أَنْ تُبارِكَ أُسْرَةَ سالازار ٱلَّتي شَرَّفَتْ مَدينَتَها ٱليَوْمَ . وَنَأْمُلُ أَنْ يَجِدوا لُؤْلُؤَةً كَبيرةً أُخْرى كَٱلَّتي

قَدَّموها لِمُتْحَفِنا ، وَأَنْ تُبْحِرَ سُفُنُهُمْ إلى أَماكِنِ صَيْدِ ٱللُّؤْلُؤِ ، وَتَعودَ سالِمةً إلى مَوْطِنِها . »

بَعْدَ أَنْ بارَكَ ٱلعَمُّ غالارْدو ٱلسُّفُنَ ، حَمَلَ ٱلمُحْتَفِلونَ ٱلفَتاةَ إلى ٱلمَيْدانِ مِنْ حَديدٍ ، وَكانَتْ تَحْمِلُ في يَدِها لُؤْلُؤَةَ ٱلسَّماءِ حَتّى يَراها كُلُّ ٱلنّاسِ . لَقَدْ كانَ يَوْمًا رائِعًا شَعَرَ فيهِ ٱلنّاسُ ، فُقَراؤُهُمْ وَأَغْنِياؤُهُمْ عَلى ٱلسَّواءِ ، أَنَّ ٱللُّؤْلُؤَةَ مِلْكٌ لَهُمْ .

بَعْدَ أَنْ أَعادوا ٱلفَتاةَ إلى ٱلمَيْدانِ ، رَكَعْتُ عَلى رُكْبَتَيَّ وَشَكَرْتُ ٱللّٰهَ ٱلَّذي وَفَّقَني في ٱلعُثورِ عَلى ٱللُّؤْلُؤَةِ ٱلَّتي شَعَرَ ٱلجَميعُ أَنَّها مِلْكٌ لَهُمْ .

كُنْتُ أَهُمُّ بِمُغادَرَةِ ٱلمَيْدانِ عِنْدَما ناداني ٱلإِشْبيليُّ قائِلًا : « حَقًّا لَقَدْ كانَ يَوْمًا عَظيمًا كَٱليَوْمِ ٱلَّذي وَجَدْتُ فيهِ لُؤْلُؤَتي في ٱلخَليجِ ٱلعَرَبِيِّ . لَقَدْ سَمِعْتُ حِكاياتٍ كَثيرةً عَنْ لُؤْلُؤَتِكَ . ما وَزْنُها ٱلحَقيقيُّ ؟ »

أَجَبْتُ : « أَكْثَرُ مِنْ سِتّينَ قيراطًا . » وَفَضَّلْتُ أَنْ أَذْكُرَ لَهُ ٱلحَقيقةَ لِأَنّي أَعْرِفُ أَنَّني مَهْما قُلْتُ فَسَتَكونُ لُؤْلُؤَتُهُ أَكْبَرَ .

قالَ : « كانَتْ لُؤْلُؤَتي أَكْبَرَ . هَلْ يُمْكِنُكَ أَنْ تَتَخَيَّلَ لُؤْلُؤَةً تَمْلَأُ يَدَيْكَ ٱلاثْنَتَيْنِ ؟ هٰكَذا كانَتِ ٱللُّؤْلُؤَةُ ٱلَّتي بِعْتُها لِلشّاهِ مَلِكِ فارِسَ . »

قُلْتُ : « لا شَكَّ أَنَّها لُؤْلُؤَةٌ رائِعةٌ . »

لَمْ أُحِسَّ في ذٰلِكَ ٱليَوْمِ بِنَفْسِ ٱلإِحْساسِ ٱلَّذي كُنْتُ أُحِسُّهُ مِنْ قَبْلُ نَحْوَ ٱلإِشْبيليِّ وَنَحْوَ قِصَصِهِ . لَقَدْ قالَ يَوْمًا إِنَّي أُخافُ ٱلغَوْصَ ، وَهَأَنَذا قَدْ

عُصْتُ . وَكانَ يَقولُ إنّي لَنْ أَسْتَطيعَ أَنْ أَفْعَلَ شَيْئًا ، وَهَأَنْذا قَدْ فَعَلْتُ : وَجَدْتُ لُؤْلُؤَةَ السَّماءِ .

سَأَلْتُهُ : « كَمْ كانَ وَزْنُ لُؤْلُؤَتِكَ ؟ »

أَجابَ : « لَقَدْ نَسِيتُ . إنَّ الأَوْزانَ لا تُهِمُّني . وَلٰكِنْ أَخْبِرْني هَلْ كانَ بِلُؤْلُؤَتِكَ شائِبَةٌ ؟ »

أَجَبْتُ : « إنَّها لَيْسَتْ لُؤْلُؤَتي . »

قالَ : « أَنا أَعْرِفُ ذٰلِكَ ، وَلَسْتُ مُقْتَنِعًا بِما فَعَلْتَ . وَلٰكِنْ هَلْ بِتِلْكَ اللُّؤْلُؤَةِ شائِبَةٌ ؟ »

أَجَبْتُهُ : « كَلَّا . لَيْسَ بِها عَيْبٌ واحِدٌ ، وَهِيَ مُسْتَديرَةٌ تَمامًا . »

رَدَّ قائِلًا : « إنَّ لُؤْلُؤَةً مُسْتَديرَةً خالِيَةً مِنَ الشَّوائِبِ وَتَزِنُ سِتِّينَ قيراطًا تُساوي .. حَسَنًا ، إنَّها تُساوي مَبْلَغًا ضَخْمًا مِنَ الْمالِ . » ثُمَّ قالَ بِصَوْتٍ خافِتٍ : « لَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّكَ وَجَدْتَها في خَليجِ بِشِلِنْك . »

قُلْتُ : « بِالْقُرْبِ مِنْ ذٰلِكَ الْمَكانِ . »

سَأَلَني : « كَمْ يَبْعُدُ عَنْ ذٰلِكَ الْمَكانِ ؟ إلى الشَّمالِ ؟ إلى الْجَنوبِ ؟ »

أَجَبْتُهُ : « في مَكانٍ ما هُناكَ . هٰذا ما أَسْتَطيعُ أَنْ أَقولَهُ . »

تَصافَحْنا ثُمَّ انْصَرَفَ .

كانَ اللَّيْلُ قَدْ حَلَّ وَعِنْدَما اقْتَرَبْتُ مِنْ بَوّابَةِ مَنْزِلِنا ، بَرَزَ لي مِنَ الظَّلامِ رَجُلٌ

وَنادَاني باسْمي . لَمْ يَكُنْ سِوى سُوتُو لُوزُون . سَأَلْتُهُ في الْحالِ : « هَلْ أَعْجَبَكَ الاحْتِفالُ ؟ »

أَجابَ : « لَقَدْ شاهَدْتُ الْفَتاةَ . شاهَدْتُها في الْمَيْدانِ وَفي الشَّوارِعِ ، وَعِنْدَ الْبَحْرِ وَسَمِعْتُ الْجَميعَ يُغَنُّونَ . » وَرَبَّتَ عَلى كَتِفي قائِلًا : « إنَّكَ لا زِلْتَ صَبِيًّا ، وَهُناكَ الْكَثيرُ مِمَّا لا تَعْرِفُهُ ، لِذا لَزِمَ أَنْ أَذْكُرَ لَكَ أَنَّ اللُّؤْلُؤَةَ لَيْسَتْ لُؤْلُؤَةَ الْمُتْحَفِ وَلَيْسَتْ لُؤْلُؤَةَ الْمَدينَةِ ، وَلَيْسَتْ لُؤْلُؤَةَ النّاسِ الَّذينَ يُغَنُّونَ لَها . إنَّها مِلْكُ شَيْطانِ الْبَحْرِ ، وَسَوْفَ يَسْتَرِدُّها يَوْمًا ما . » ثُمَّ اسْتَدارَ وَاخْتَفى في الظَّلامِ .

كُنْتُ في صَباحِ الْيَوْمِ التّالي أُسيرُ مَعَ أَبي نَحْوَ الشّاطِئِ عِنْدَما سَأَلَني : « هَلْ يَسْمَحُ لي لُوزُون بِالْبَحْثِ عَنِ اللُّؤْلُؤِ في الْبُحَيْرَةِ ؟ »

أَجَبْتُ : « كَلَّا ، وَلَيْسَ في اسْتِطاعَتي أَنْ أَسْأَلَهُ . »

قالَ : « إنَّ الطَّريقَ طَويلٌ إلى سيرالْفو ، وَالْمَرَّةَ الأَخيرَةَ الَّتي ذَهَبْنا فيها إلى هُناكَ لَمْ نَجِدْ سِوَى الْقَليلِ مِنَ اللُّؤْلُؤِ . أَمّا في تِلْكَ الْبُحَيْرَةِ فَرُبَّما وَجَدْنا لُؤْلُؤَةً مُماثِلَةً لِتِلْكَ اللُّؤْلُؤَةِ الْعَظيمَةِ . »

فَأَخْبَرْتُ أَبي بِما دارَ بَيْني وَبَيْنَ لُوزُون في اللَّيْلَةِ السّابِقَةِ .

قالَ : « إنَّ لُوزُون هِنْدِيٌّ عَجوزٌ ساذَجٌ . »

أَجَبْتُهُ : « رُبَّما كانَ كَذٰلِكَ ، وَلٰكِنَّها بُحَيْرَتُهُ وَلَنْ يَسْمَحَ لَكَ بِالْغَوْصِ فيها . »

الفَصْلُ الثّاني عَشَرَ

العاصِفَةُ

أَبْحَرَتِ السُّفُنُ في الصَّباحِ التّالي إلى جَزيرةِ سيرالْفو . كانَتْ تَبْدو جَميلةً في طِلائِها الْحَديدِ وَأَعْلامِها الْمَرْفوعةِ . وَكانَتْ هُناكَ رياحٌ خَفيفةٌ تَهُبُّ مِنَ الْجَنوبِ ، وَبَدَتِ السَّماءُ زَرْقاءَ قاتِمةً مِثْلَ الْبَحْرِ . لَقَدْ كانَ يَوْمًا جَميلًا .

سَكَنَتِ الرِّياحُ تَمامًا بَعْدَ الظُّهْرِ وَأَصْبَحَ الْجَوُّ حارًّا جِدًّا ، ثُمَّ ما لَبِثَتْ أَنْ هَبَّتِ الرِّياحُ مِنَ الْجِبالِ فَخَفَّتْ حِدَّةُ الْحَرارةِ . وَعِنْدَما حانَ وَقْتُ الْعَشاءِ سَكَنَتِ الرِّياحُ مِنْ جَديدٍ ، وَكادَ الْهَواءُ أَنْ يَنْعَدِمَ ، وَصَعُبَ التَّنَفُّسُ ، وَتَجَمَّعَتِ السُّحُبُ في السَّماءِ .

تَوَقَّفَتْ أُمّي عَنْ تَناوُلِ طَعامِها ، وَاتَّجَهَتْ إلى النّافِذةِ وَنَظَرَتْ إلى الْخارِجِ . كانَتْ دائِمًا تَخْشَى الْجَوَّ وَتَقَلُّباتِهِ عِنْدَما يَكونُ أَبي في الْبَحْرِ .

قُلْتُ : « إِنَّها رياحٌ جَبَلِيَّةٌ . »

قالَتْ : « كَلّا ، إِنَّها الرِّياحُ السّاخِنةُ . »

إِنَّ هٰذِهِ الرِّياحَ الْعاتِيَةَ نَعْرِفُها وَنَخْشاها جَميعًا . وَتَبْدَأُ عادةً بِهٰذِهِ الطَّريقةِ .

خَرَجْتُ إلى الطَّريقِ وَنَظَرْتُ إلى السَّماءِ ، لَمْ أَرَ بِها نَجْمةً واحِدةً .

وَاسْتَمَرَّتِ الرِّياحُ تَهُبُّ حامِلةً مَعَها رائِحةَ الْبَحْرِ . وَعُدْتُ لِأُتَناوَلَ عَشائي ، وَكُنّا نَسْمَعُ صَفيرَ الرِّياحِ بَيْنَ الْأَشْجارِ وَنَحْنُ نَتَناوَلُ الطَّعامَ . وَنَهَضْتُ مِنْ مَكاني وَتَوَجَّهْتُ نَحْوَ الْبابِ كَيْ أُغْلِقَهُ ، وَما كِدْتُ أُخْطو خُطْوَتَيْنِ حَتّى انْغَلَقَ الْبابُ بِشِدَّةٍ وَانْطَفَأَ الْمِصْباحُ . وَحاوَلْتُ أَنْ أُشْعِلَهُ وَلٰكِنَّ الْهَواءَ الَّذي كانَ يَتَسَرَّبُ مِنْ بَيْنِ قُضْبانِ النّافِذةِ حالَ دونَ إِشْعالِهِ ، فَقالَتْ أُمّي بِصَوْتٍ خَفيضٍ : « الرِّياحُ السّاخِنةُ ! »

تَمْتَمَتْ أُخْتي : « الرِّياحُ السّاخِنةُ ! »

ذَهَبْتُ إلى النّافِذةِ وَنَظَرْتُ مِنْها ، فَلَمْ أَرَ في السَّماءِ نَجْمةً واحِدةً . وَكانَ صَوْتُ الرِّياحِ أَشْبَهَ بِصَرَخاتِ خَوْفٍ يُطْلِقُها أَلْفُ طائِرٍ مِنَ الطُّيورِ الْبَحْرِيَّةِ .

قُلْتُ : « لا بُدَّ أَنَّ سُفُنَنا أَحَسَّتْ بِالْعاصِفةِ وَهِيَ قادِمةٌ فَتَوَجَّهَتْ إلى خَليجِ بِشِلِنْك أَوْ إلى أَيِّ خَليجٍ مِنَ الْخُلْجانِ الْآمِنةِ ، وَهِيَ كَثيرةٌ وَمُنْتَشِرةٌ بَيْنَنا وَبَيْنَ جَزيرةِ سيرالْفو . »

نَهَضَتْ والِدَتي وَحاوَلَتْ فَتْحَ الْبابِ ، ثُمَّ صَرَخَتْ قائِلةً : « ساعِدْني . »

قُلْتُ : « لَنْ تَسْتَطيعي أَنْ تَتَحاوَزي الْفِناءَ حَتّى وَلَوْ حَبَوْتِ عَلى يَدَيْكِ وَرُكْبَتَيْكِ . إِنَّ السُّفُنَ في أَمانٍ ، فَلا تَخافي . مَعَهُمْ أَعْظَمُ رُبّانٍ عَرَفَهُ الْبَحْرُ ، وَكَمْ اجْتازَ مِنْ عَواصِفَ ! »

اِرْتَفَعَ صَفيرُ الرِّياحِ لِدَرَجةٍ لَمْ نَسْتَطِعْ مَعَها سَماعَ أَصْواتِنا ، فَجَلَسْنا مُتَحاوِرينَ حَوْلَ الْمائِدةِ في الْغُرْفةِ الْمُظْلِمةِ وَلَمْ نُحاوِلِ الْكَلامَ . وَجاءَتِ

ٱلخادِماتُ ٱلهِنْديّاتُ مِنَ ٱلمَطْبَخِ وَجَلَسْنَ عَلى ٱلأَرضِ إلى جِوارِنا . كانَ زَوْجا ٱثْنَتَيْنِ مِنْهُنَّ يَعْمَلانِ فَوْقَ سُفُنِنا .

ٱسْتَمَرَّتِ العاصِفةُ حَتّى مُنْتَصَفِ ٱللَّيْلِ ، وَخَفَّتْ شِدَّةُ ٱلرِّياحِ قُبَيْلَ ٱلفَجْرِ ، ثُمَّ سَكَنَتْ تَمامًا عِنْدَ طُلوعِ ٱلنَّهارِ . وَذَهَبْنا جَميعًا إلى ٱلشّاطِئِ لِاسْتِقْبالِ ٱلسُّفُنِ ٱلعائِدةِ . وَكانَ مِنْ آثارِ ٱلعاصِفةِ ٱمْتِلاءُ ٱلفِناءِ بِأَوْراقِ ٱلأَشْجارِ ٱلمُتَساقِطةِ ، وَكَذٰلِكَ ٱمْتِلاءُ ٱلمَيْدانِ بِأَحْجارِ سُقُوفِ ٱلبُيوتِ ٱلمُجاوِرةِ .

بَيْنَما كُنّا نُسْرِعُ إلى ٱلشّاطِئِ لَحِقَتْ بِنا أَعْدادٌ كَبيرةٌ مِنَ ٱلنّاسِ ، كانَ لِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجٌ أَوْ أَخٌ أَوْ صَديقٌ يَعْمَلُ عَلى سُفُنِنا .

كانَ ٱلشّاطِئُ مُغَطًّى بِٱلأَعْشابِ ٱلبَحْرِيَّةِ وَٱلأَسْماكِ ٱلمَيِّتةِ . وَقَدْ قَذَفَتِ ٱلأَمْواجُ بِالرَّوارِقِ ٱلرّاسِيةِ بِٱلخَليجِ عَلى ٱلرِّمالِ . وَكانَ مِنَ ٱلمَأْلوفِ قَبْلَ هُبوبِ ٱلعاصِفةِ إخْراجُ ٱلرَّوارِقِ مِنَ ٱلماءِ وَرَبْطُها إلى ٱلصُّخورِ عَلى ٱلشّاطِئِ ، وَقَدْ حالَ هُبوبُ ٱلعاصِفةِ ٱلمُفاجِئُ دونَ ذٰلِكَ .

كانَ ٱلعَمُّ غالاردو قَدْ أَسْرَعَ إلى ٱلشّاطِئِ بِشَعْرِهِ ٱلأَبْيَضِ وَعَباءَتِهِ ٱلمَرْفوعةِ إلى ما فَوْقَ رُكْبَتَيْهِ .

قالَ : « سَتَعودُ ٱلسُّفُنُ حالًا . إنَّ ٱللهَ يَرْعاها . لا تُوجَدُ خُلْجانٌ قَريبةٌ مِنْ هُنا ، لِذا رُبَّما لا تَصِلُ قَبْلَ ٱلظُّهْرِ . عُودُوا إلى بُيوتِكُمُ ٱلآنَ مُطْمَئِنّينَ ، وَتَوَكَّلوا عَلى ٱللهِ ، وَٱنْتَظِروا . »

لَمْ يَنْصَرِفْ أَحَدٌ وَٱنْقَضى ٱلصَّباحُ وَكَذا ٱلظَّهيرةُ ، وَلَمّا حَلَّ ٱلغُروبُ

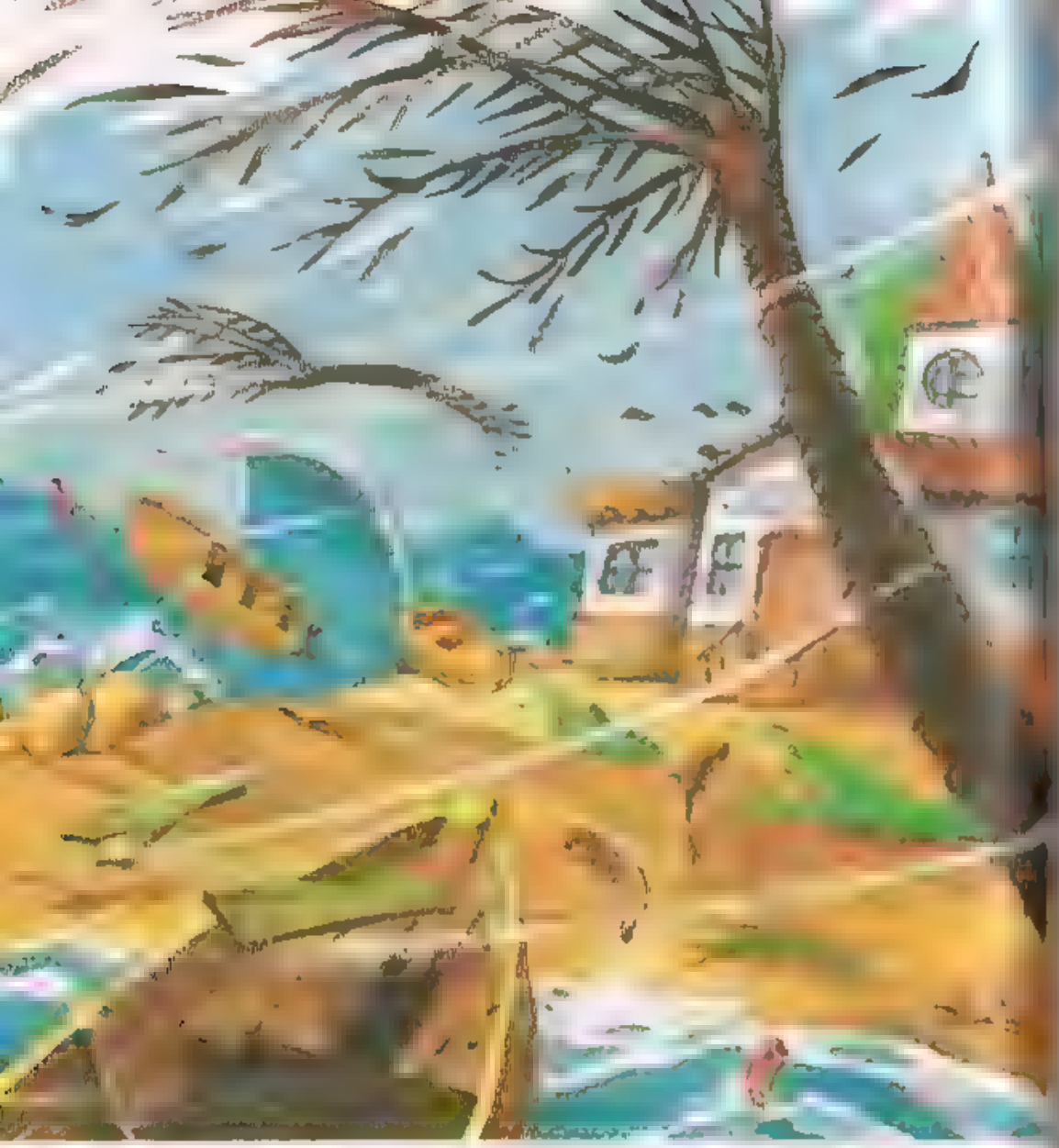

شاهَدَ أَحَدُهُمْ زَوْرَقًا بَعيدًا في ٱلبَحْرِ . وَعِنْدَما ٱقْتَرَبَ وَٱسْتَدارَ نَحْوَ ٱلخَليجِ عَرَفْتُ أَنَّهُ لُوزُون في قارِبِهِ ٱلأَحْمَرِ .

شَدَّ لُوزُون قارِبَهُ إلى الشّاطِئ بَعيدًا عَنِ الجُموعِ المُحْتَشِدةِ هُناك ، ثُمَّ جَلَسَ فَتَوَجَّهْتُ إلَيْهِ وَسَألْتُهُ : « هَلْ شاهَدْتَ أيًّا مِنَ السُّفُنِ ؟ »

أشْعَلَ سيجارةً ، وَأخَذَ يُدَخِّنُ لَحْظةً ثُمَّ قالَ : « لَمْ أرَ سُفُنَكُمْ وَلَنْ أراها أبَدًا ، وَأنْتَ أيْضًا لَنْ تَراها ثانيةً . »

أغْضَبَني قَوْلُهُ هٰذا ، فَسَألْتُهُ : « أتَعْني أنَّ شَيْطانَ البَحْرِ قَدْ حَطَّمَها ؟ »

أجابَ : « كَلّا ! أنا لَمْ أقُلْ ذٰلِكَ . العاصِفةُ هِيَ الَّتي فَعَلَتْ ذٰلِكَ ، وَلَنْ تَراها أبَدًا . »

سألْتُهُ : « هَلْ تَعْني أنَّ شَيْطانَ البَحْرِ هوَ الَّذي أثارَ العاصِفةَ ؟ »

لَمْ يُجِبْ ، فابْتَعَدْتُ عَنْهُ غاضِبًا ، وَعُدْتُ إلى حَيْثُ تَجَمَّعَ النّاسُ .

عِنْدَما أقْبَلَ اللَّيْلُ ، كانَ لُوزُون ما زالَ جالِسًا يُدَخِّنُ السَّجائِرَ وَيَنْتَظِرُ . أشْعَلْنا نارًا ، وَالْتَفَفْنا حَوْلَها ، وَتَزايَدَ عَدَدُ النّاسِ وَأحْضَرَ لَنا بَعْضُ الأصْدِقاءِ طَعامًا وَماءً مِنَ المَدينةِ .

انْصَرَفَ بَعْضُ النّاسِ ، وَلٰكِنَّنا أبْقَيْنا عَلى النّارِ مُشْتَعِلةً حَتّى تُرْشِدَ السُّفُنَ لِلْوُصولِ إلى لاباز في أمانٍ .

عِنْدَما أشْرَقَتِ الشَّمْسُ كانَتِ السَّماءُ صافيةً وَكانَ البَحْرُ هادِئًا . وَبَدَتِ الجُزُرُ النّائِيةُ كَما لَوْ كانَتْ قَريبةً وَفي مُتَناوَلِ اليَدِ . وَبِمُجَرَّدِ أنْ أشْرَقَتِ الشَّمْسُ أشارَ صَبِيٌّ ، كانَ يَجْلِسُ عَلى جِدارِ صَدِّ أمْواجِ البَحْرِ ، بِيَدِهِ نَحْوَ

الجَنوبِ ، وَعِنْدَما نَظَرْتُ إلى هُناكَ شاهَدْتُ رَجُلًا يَسيرُ مُتَرَنِّحًا عَلى الشّاطِئِ . كانَ يَقَعُ مَرَّةً ، وَيَظَلُّ ساكِنًا ثُمَّ يَنْهَضُ وَيَسْتَأْنِفُ التَّحَرُّكَ عَلى يَدَيْهِ وَرُكْبَتَيْهِ ، ثُمَّ يَنْهَضُ واقِفًا . في أوَّلِ الأمْرِ ظَنَنْتُ أنَّهُ رَجُلٌ ثَمِلٌ قادِمٌ مِنَ المَدينةِ ، ثُمَّ تَبَيَّنْتُ أنَّهُ لا يَرْتَدي قَميصًا ، وَأنَّ وَجْهَهُ مُلَطَّخٌ بِالدِّماءِ . سَقَطَ الرَّجُلُ ثانيةً وَرَقَدَ هُناكَ بَعْضَ الوَقْتِ ، ثُمَّ نَهَضَ وَأقْبَلَ نَحْوَنا .

عِنْدَما اقْتَرَبَ عَرَفْتُهُ ، فَرَكَضْتُ نَحْوَهُ .. إنَّهُ الإشْبيلِيُّ . وَعِنْدَما وَصَلْتُ إلَيْهِ سَقَطَ عَلى قَدَمَيَّ ، ثُمَّ نَهَضَ مِنْ جَديدٍ وَنَظَرَ إلَيَّ . كانَتْ عَيْناهُ مُخيفَتَيْنِ .

قالَ : « ضاعَتْ ! ضاعَتْ ! ضاعَتِ السُّفُنُ ! » ثُمَّ سَقَطَ عَلى الرِّمالِ يَتَمْتِمُ بِكَلامٍ لَمْ أفْهَمْهُ .

الفصلُ الثالثَ عشرَ

اختفاءُ اللؤلؤةِ

فُقِدَ اثنانِ وثلاثونَ رَجُلًا مِنْ رِجالِنا مَعَ سُفُنِنا ، ونَجا رَجُلٌ واحِدٌ فقطْ – الإشبيليُّ .

في اليَوْمِ الرابعِ بَعْدَ العاصِفةِ أُقيمَتْ صَلاةٌ لِلْمَوْتى . وتواعَدَ الناسُ من المَدينةِ ومِنَ التِّلالِ . كانَ كُلٌّ مِنْهُمْ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ قائِلًا :

« يا لَلْغَرابةِ ! إنَّ أهَمَّ حَدَثَيْنِ في تاريخِ مَدينةِ لاناز قَدْ وَقَعا في أقَلَّ مِنْ شَهْرٍ : أوَّلُهُما العُثورُ على اللؤلؤةِ العَظيمةِ ، وثانيهُما العاصفةُ التي حَطَّمَتِ السُّفُنَ وقَتَلَتْ عَدَدًا كبيرًا مِنَ الرِّجالِ . » وشَعَرَ الكثيرونَ – وإنْ لَمْ يُصَرِّحْ بذلكَ أحَدٌ – بِارْتِباطٍ وَثيقٍ بَيْنَ الحَدَثَيْنِ .. ارْتِباطٍ لَمْ يَسْتَطِعْ أحَدٌ فَهْمَهُ .

كُنْتُ أنا أحَدَ مَنْ كانَ لَدَيْهِمْ هذا الإحْساسُ . جَلَسْتُ بِجوارِ والِدَتي نَسْتَمِعُ إلى حَديثِ العَمِّ غالاردو في ذلكَ الصَّباحِ الحزينِ . لَمْ أُصْغِ لِحَديثِهِ تمامًا ، وكانَ يَتَحَدَّثُ عَنْ أبي وَجِدِّهِ وَهَداياهُ العَديدةِ لِلْمَدينةِ وبِصِفةٍ خاصَّةٍ اللؤلؤةِ العَظيمةِ .

غادَرْتُ المَكانَ وَتَحَدَّثْتُ مَعَ بَعْضِ أصْدِقائي ، وَجاءَ الإشبيليُّ ووَضَعَ يَدَهُ على كَتِفي . بَيْنَما أنا واقِفٌ شاهَدْتُ سُوتو لُوزونَ يَقِفُ بَعيدًا . كانَ يَنْظُرُ إلى الناسِ ، وَهُمْ يُغادِرونَ المَكانَ ، لَمْ يَنْظُرْ إليَّ أبَدًا . وعِنْدَما تَرَكْتُ

الإشبيليَّ ، سَمِعْتُ وَقْعَ خُطواتِ خَلْفي ، ولَمَّا الْتَفَتُّ شاهَدْتُهُ على بُعْدِ مِتْرٍ واحِدٍ فقطْ .

قالَ : « أقولُ لَكَ مِنْ جديدٍ إنَّ اللؤلؤةَ مِلْكٌ لِشَيْطانِ البَحْرِ ، وأقولُ هذا لِأنَّكَ أنْتَ الذي وَجَدْتَها . »

لَمْ أُجِبْهُ ، واتَّخَذْتُ طَريقي بَيْنَ الناسِ قاصِدًا مَنْزِلي لِأنْضَمَّ إلى والِدَتي وشَقيقَتي . ولكِنَّني عُدْتُ لِأتَحَدَّثَ إلى العَمِّ غالاردو فَلَمْ أجِدْهُ في أيِّ مكانٍ .

تَوَجَّهْتُ إلى مُتْحَفِ المَدينةِ وأنا أفكِّرُ في السُّفُنِ التي تَحَطَّمَتْ في البَحْرِ وفي أبي الذي فَقَدْتُهُ ، وفيما قالَهُ لورُود ، ووَقَفْتُ أنْظُرُ إلى اللؤلؤةِ . وَتَنَفَّسْتُ حَوْلي فَلَمْ أرَ أحَدًا وَنادَيْتُ على العَمِّ غالاردو فَلَمْ أتَلَقَّ جَوابًا . فَمَدَدْتُ يَدي بِسُرْعةٍ وأخَذْتُ اللؤلؤةَ ووَضَعْتُها في جَيْبي ثُمَّ غادَرْتُ المُتْحَفَ .

كُنْتُ أعْتَقِدُ أنَّني أغْلَقْتُ البابَ الكَبيرَ عِنْدما دَخَلْتُ ، ولكِنَّهُ كانَ مَفْتوحًا . خَرَجْتُ وَحَطَوْتُ خُطْوَتَيْنِ ووَجَدْتُني أُواجِهُ الإشبيليَّ .

قالَ : « لَقَدْ كُنْتُ عائِدًا لِأَلْتَقِطَ قُبَّعَتي ، هذا إذا لَمْ يَكُنْ أحَدُ لُصوصِ المَدينةِ قَدْ سَرَقَها . »

أفْسَحْتُ لَهُ الطَّريقَ لِيَمُرَّ . ونَظَرَ إليَّ فَلَمْ أهْتَمَّ ، وواصَلْتُ سَيْري . وتَساءَلْتُ في نَفْسي : « هَلْ رَأى الشَّيْءَ الثَّقيلَ الكَبيرَ الذي في جَيْبي ؟ هَلْ أدْرَكَ أنَّهُ اللؤلؤةُ ؟ »

في المَساءِ اكْتَشَفَ حارِسُ المُتْحَفِ اخْتِفاءَ اللؤلؤةِ . وكانَتْ أُمّي تَكْتُبُ خِطابًا عِنْدَما سَمِعَتْ دَقًّا عَنيفًا على بابِ بَيْتِنا ، فَأَلْقَتِ القَلَمَ جانِبًا وَفَتَحَتِ

ٱلبابَ لِيَدْخُلَ ٱلعَمُّ غالاردو صائِحًا : « لَقَدِ ٱختَفَتِ ٱللُّؤْلُؤَةُ ! ٱختَفَتْ ! »

سَأَلَتْهُ مُنْدَهِشَةً : « ٱختَفَتْ ؟ »

أَجابَها قائِلًا : « سُرِقَتْ ! »

قَفَزْتُ مِنْ مَكاني وَتَبِعْتُهُ إِلى ٱلمُتْحَفِ . كانَ ٱلنّاسُ قَدْ تَجَمَّعوا في ٱلخارِجِ ، فَقادَني إِلى حَيْثُ كانَتِ ٱللُّؤْلُؤَةُ مَوْضوعَةً .

قالَ أَحَدُهُمْ : « إِنَّني أَعْرِفُ ٱلهِنْدِيَّ ٱلَّذي سَرَقَها . »

قالَ آخَرُ : « شاهَدْتُ رَجُلًا غَريبًا يَبْتَعِدُ مُسْرِعًا عَنِ ٱلمُتْحَفِ . »

أَصْغَيْتُ ، عَلى حينَ كانَتِ ٱلنِّساءُ يَبْكينَ ، وَٱلعَمُّ غالاردو يَدْعو ٱللهَ بِصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ أَنْ يَجِدوا ٱللُّؤْلُؤَةَ . وَكِدْتُ أَقولُ : « أَنا أَخَذْتُ ٱللُّؤْلُؤَةَ . إِنَّها في غُرْفَتي ، أَخْفَيْتُها في فِراشي . إِنْتَظِروا حَتّى أَذْهَبَ وَأُحْضِرَها . » ثُمَّ فَكَّرْتُ في ٱلسُّفُنِ ٱلَّتي فَقَدْناها . وَسَمِعْتُ مِنْ جَديدٍ صَوْتَ لُوزُون يَتَرَدَّدُ في سَمْعي : « ٱللُّؤْلُؤَةُ مِلْكٌ لِشَيْطانِ ٱلبَحْرِ . لَقَدْ أَتى وَأَخَذَها . »

ٱنْصَرَفْتُ في هُدوءٍ ، وَتَناوَلْتُ عَشائي ، ثُمَّ أَخْفَيْتُ ٱللُّؤْلُؤَةَ تَحْتَ قَميصي وَٱتَّجَهْتُ إِلى ٱلشّاطِئِ سالِكًا مَمَرًّا صَغيرًا حَتّى لا يَراني أَحَدٌ . وَوَجَدْتُ قارِبًا أَعْرِفُ صاحِبَهُ . كانَ قارِبَ تَحْديف ، وَمَحاديفُهُ ثَقيلَةٌ وَلَمّا لَمْ يَكُنْ هُناكَ غَيْرُهُ كانَ لا بُدَّ مِنِ ٱسْتِخْدامِهِ .

عِنْدَما بَرَغَ ٱلقَمَرُ ، ٱتَّجَهْتُ نَحْوَ ٱلبُحَيْرَةِ حَيْثُ يَعيشُ شَيْطانُ ٱلبَحْرِ ، وَكَما قالَ لُورُون : « شَيْطانُ ٱلبَحْرِ يَعيشُ هُنا في هٰذِهِ ٱلبُحَيْرَةِ . »

وَٱلآنَ آمَنْتُ بِصِدْقِ قَوْلِهِ .

ٱلفَصْلُ ٱلرّابِعَ عَشَرَ

ٱلإِشْبيلِيُّ يَتْبَعُني

وَصَلْتُ إِلى مَدْخَلِ ٱلبُحَيْرَةِ عِنْدَ شُروقِ ٱلشَّمْسِ ، وَبَلَغْتُ ٱلصُّخورَ وَٱلكَهْفَ . كانَ ٱلضَّبابُ ٱلأَحْمَرُ ٱلكَثيفُ يَحْجُبُ ٱلبُحَيْرَةَ تَمامًا لِدَرَجَةٍ تَعَذَّرَتْ مَعَها رُؤْيَةُ ٱلشّاطِئِ ٱلبَعيدِ حَيْثُ يُقيمُ لُوزُون ، ثُمَّ سَمِعْتُ صَوْتًا وَأَحْسَسْتُ أَنَّ شَيْئًا ما أَوْ شَخْصًا ما خَلْفي .

لَمْ أُفَكِّرْ كَثيرًا في شَيْطانِ ٱلبَحْرِ أَثْناءَ ٱللَّيْلِ ، وَلَمْ أَشْعُرْ بِٱلخَوْفِ عِنْدَ ٱلتَّفْكيرِ فيهِ ، أَمّا لُوزُون فَقَدْ كانَ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَسْتَطيعُ أَنْ يُغَيِّرَ شَكْلَهُ وَيُصْبِحَ رَجُلًا يَذْهَبُ إِلى ٱلمَدينَةِ أَوْ إِلى أَيِّ مَكانٍ . كانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ لَهُ أَصْدِقاءَ مِنْ سَمَكِ ٱلقِرْشِ وَغَيْرِهِ مِنَ ٱلأَسْماكِ تَحْكي لَهُ كُلَّ شَيْءٍ تَراهُ . إِذا كانَ ٱلأَمْرُ كَذٰلِكَ فَهُوَ يَسْتَطيعُ أَنْ يُدْرِكَ أَنَّني أُحْضِرُ مَعي ٱللُّؤْلُؤَةَ كَيْ أُعيدَها إِلى كَهْفِهِ . وَلٰكِنّي كُنْتُ أَتَطَلَّعُ أَحْيانًا حَوْلي وَأَنا أَجْدِفُ في ٱللَّيْلِ بَحْثًا عَنْ هٰذا ٱلكائِنِ ٱلعِمْلاقِ ، وَأَسْأَلُ نَفْسي وَقَدِ ٱرْتَسَمَتْ عَلى وَجْهي بِصْفُ ٱبْتِسامَةٍ : « هَلْ أُومِنُ بِهٰذا أَمْ لا ؟ »

سَمِعْتُ ٱلصَّوْتَ خَلْفي مِنْ حَديدٍ وَسْطَ ٱلضَّبابِ ، ثُمَّ تَبَيَّنْتُ صَوْتًا أَعْرِفُهُ جَيِّدًا . قالَ : « صَباحَ ٱلخَيْرِ يا رامون . إِنَّكَ تُجَدِّفُ بِبُطْءٍ . لَقَدْ تَبِعْتُكَ مِنْ لابار ، وَبِتُّ مُعْظَمَ ٱللَّيْلِ وَأَنا أَنْتَظِرُكَ . هَلِ ٱللُّؤْلُؤَةُ ثَقيلَةٌ جِدًّا ؟ »

قُلْتُ : « أَيَّةُ لُؤْلُؤَةٍ ؟ »

ضَحِكَ ٱلإِشْبِيلِيُّ قَائِلًا : « أَعْمِي بِطَبِيعَةِ ٱلحَالِ ٱللُّؤْلُؤَةَ ٱلعَظِيمَة . أَنا أَعْرِفُ أَنَّكَ سَرَقْتَها . لَقَدْ وَقَفْتُ عِنْدَ بَابِ ٱلمُتْحَفِ وَرَأَيْتُكَ تَسْرِقُها . ثُمَّ نَبَشْتُ شَكْلَها فِي جَيْبِكَ عِنْدَما غادَرْتَ ٱلمُتْحَفَ . ولَعَلَّكَ تَسْأَلُنِي : لِمادا كُنْتَ تُراقِبُنِي ؟ لَقَدْ راقَبْتُكَ لِأَنَّنِي ذَهَبْتُ لِأَسْرِقَ ٱللُّؤْلُؤَة . أَيُذْهِلُكَ هٰذا ؟ »

قُلْتُ : « كَلَّا ، لا يُذْهِلُنِي . »

ضَحِكَ وَقالَ : « لِصَّانِ ! وَٱلآنَ يَسْتَطِيعُ كِلانا أَنْ يَقُولَ ٱلحَقِيقَةَ . هل ٱللُّؤْلُؤَةُ مَعَكَ ؟ »

لَمْ أَسْتَطِعْ رُؤْيَتَهُ لِكَثافَةِ ٱلضَّبابِ ، ولَمْ أَسْتَطِعْ تَحْدِيدَ مَكانِ قارِبِهِ

سَأَلَنِي : « إِذا لَمْ تَكُنْ مَعَكَ ٱللُّؤْلُؤَةُ ، أَخْبِرْنِي - هَلْ هٰذا هُوَ ٱلمَكانُ ٱلَّذِي وَحَدْتَها فِيهِ ؟ أَجِبْ عَنِ ٱلسُّؤالَيْنِ وَقُلِ ٱلحَقَّ . »

إِنْقَشَعَ ٱلضَّبابُ قَلِيلًا وَتَبَيَّنْتُ أَيْنَ كُنَّا . كانَ ٱلإِشْبِيلِيُّ بَيْنِي وَبَيْنَ كَهْفِ شَيْطانِ ٱلبَحْرِ . كانَ أَقْرَبَ بِكَثِيرٍ مِمَّا كُنْتُ أَتَصَوَّرُ ، وَكانَ مُمْسِكًا بِسِكِّينٍ فِي يَدِهِ . تَبادَلْنا ٱلنَّظَراتِ ، وَأَدْرَكْتُ مِنْ مَلامِحِ وَجْهِهِ أَنَّهُ يَنْوِي ٱسْتِخْدامَهُ لَوْ لَزِمَ ٱلأَمْرُ . فَحَبَسْتُ وَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا .

قالَ - « لا أَعْتَقِدُ أَنَّكَ أَخْطَأْتَ بِسَرِقَةِ ٱللُّؤْلُؤَةِ ٱلعَظِيمَة ، إِذْ لَيْسَ لَها فائِدَةٌ هُناكَ . ولَوْ كُنْتَ قَدْ أَعْطَيْتَها لِلشَّيْطانِ لَما كانَ هُناكَ فَرْقٌ ، وَأَنْتَ تَتَطَلَّعُ تُرِيدُ أَنْ تَحْتَفِظَ بِسِرِّ ٱلمَكانِ ٱلَّذِي وَجَدْتَها فِيهِ . هَيَّا أَعْطِنِي ٱللُّؤْلُؤَة ، وَبَعْدَ ذٰلِكَ سَوْفَ نَتَحَدَّثُ عَنْ أَشْياءَ أُخْرَى . »

أَبْعَدَ ٱلسِّكِّينَ ، وَحَرَّكَ قارِبَهُ حَتَّى لَمَسَ قارِبِي ، وَمَدَّ يَدَهُ كَيْ يَأْخُذَ ٱللُّؤْلُؤَة . كانَ ٱلكَهْفُ مُظْلِمًا وَلَمْ يَكُنْ بَعِيدًا ، فَقَدْ رَأَيْتُهُ بِوُضُوحٍ وَأَخْرَجْتُ ٱللُّؤْلُؤَةَ مِنْ قَمِيصِي كَما لَوْ كُنْتُ أَعْتَزِمُ إِعْطاءَها لَهُ . وَلٰكِنْ عِنْدَما مَدَّ يَدَهُ لِيَأْخُذَها قَذَفْتُ بِها فِي ٱلهَواءِ لِتَسْقُطَ خَلْفَهُ فِي ٱلماءِ ، أَيْ عِنْدَ مَدْخَلِ ٱلكَهْفِ .

كانَ مِنَ ٱلسُّخْفِ أَنْ أَفْعَلَ هٰذا ، فَبِمُجَرَّدِ أَنْ قَذَفْتُ ٱللُّؤْلُؤَةَ ، كانَ ٱلإِشْبِيلِيُّ فِي ٱلبَحْرِ يَسْبَحُ تَحْتَ ٱلماءِ . وَأَمْسَكْتُ بِٱلمِجْدافَيْنِ وَأَدَرْتُ ٱلقارِبَ بَعِيدًا . فَقَدْ قَصَدْتُ أَنْ أَجْدِفَ حَتَّى أَصِلَ إِلَى نِهايَةِ ٱلبُحَيْرَةِ وَأَطْلُبَ ٱلعَوْدَ مِنْ

لُوزُون . وَلٰكِنْ قَبْلَ أَنْ أَتَمَكَّنَ مِنْ ذٰلِكَ طَفَا ٱلإِشْبِيلِيُّ فَوْقَ ٱلمَاءِ ، وَأَمْسَكَ بِأَحَدِ ٱلمِجْذَافَيْنِ ، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى حَافَةِ ٱلقَارِبِ . كَانَتِ ٱللُّؤْلُؤَةُ ٱلسَّوْدَاءُ ٱلكَبِيرَةُ فِي يَدِهِ .

قَالَ : « لَقَدْ أَلْقَيْتُهَا لِلشَّيْطَانِ . » ثُمَّ صَعِدَ إِلَى ٱلقَارِبِ قَائِلًا : « وَٱلآنَ لِنَبْحَثْ عَنْ قَارِبِي . »

كَانَ قَارِبُهُ قَدْ تَحَرَّكَ بَعِيدًا . كَانَ أَصْغَرَ مِنْ قَارِبِي ، وَعِنْدَمَا وَصَلْنَا إِلَيْهِ وَجَدْتُهُ مَمْلُوءًا بِٱلطَّعَامِ وَآنِيَةِ ٱلمِيَاهِ وَأَدَوَاتِ ٱلصَّيْدِ وَحَرْبَةٍ يَسْتَخْدِمُهَا فِي مُوَاجَهَةِ ٱلأَسْمَاكِ ٱلضَّخْمَةِ .

قَفَزَ إِلَى قَارِبِهِ قَائِلًا : « هَيَّا ! » وَلَمْ أَتَحَرَّكْ ، فَصَاحَ مَرَّةً أُخْرَى : « هَيَّا ! أَمَامَنَا طَرِيقٌ طَوِيلٌ . »

قُلْتُ لَهُ : « سَأَحْذِفُ حَتَّى ٱلشَّاطِئِ . إِنَّ لَدَيَّ عَمَلًا مَعَ سُوتُو لُوزُون . »

أَخْرَجَ ٱلإِشْبِيلِيُّ سِكِّينَهُ ، فَنَظَرْتُ إِلَى ٱلشَّاطِئِ ٱلبَعِيدِ : كُنْتُ آمُلُ أَنْ يَكُونَ لُوزُون قَدْ سَمِعَ حَدِيثَنَا وَجَاءَ لِيَرَى مَنْ نَكُونُ ، وَلٰكِنْ كَانَ ٱلضَّبَابُ ٱلأَحْمَرُ مَا زَالَ يَحْجُبُ ٱلشَّاطِئَ ، فَلَمْ أَسْتَطِعْ رُؤْيَتَهُ .

قَالَ ٱلإِشْبِيلِيُّ وَهُوَ يُمْسِكُ سِكِّينَهُ ٱسْتِعْدَادًا لِطَعْنِي : « هَيَّا ! »

ٱضْطُرِرْتُ إِلَى أَنْ أُطِيعَهُ ، وَٱنْتَقَلْتُ إِلَى قَارِبِهِ وَجَلَسْتُ فِيهِ مُمْسِكًا بِٱلمِجْدَافَيْنِ ، أَمَّا هُوَ فَقَدْ خَلَعَ قَمِيصَهُ وَوَضَعَ فِيهِ ٱللُّؤْلُؤَةَ ، وَأَمَرَنِي أَنْ أَحْذِفَ .

بَدَأَ ٱلضَّبَابُ يَرْتَفِعُ فَوْقَ ٱلمَاءِ ، فَأَلْقَيْتُ نَظْرَةً أَخِيرَةً عَلَى ٱلشَّاطِئِ ، لٰكِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَحَدٌ . وَشَعَرْتُ بِطَرَفِ ٱلسِّكِّينِ يَنْغَرِزُ فِي ظَهْرِي ، فَٱلْتَقَطْتُ ٱلمِجْدَافَيْنِ وَبَدَأْتُ أَحْذِفُ . أَمَرَنِي بِٱلتَّحْدِيفِ نَحْوَ ٱلبَحْرِ لِنَذْهَبَ إِلَى مَدِينَةِ غوايْماس ، وَعِنْدَمَا سَأَلْتُهُ قَالَ : « سَنَبِيعُ ٱللُّؤْلُؤَةَ ٱلعَظِيمَةَ ، وَسَتَجِيءُ مَعِي ، لِأَنَّ ٱسْمَ سالَارار مَعْرُوفٌ لَدَى تُجَّارِ ٱللُّؤْلُؤِ هُنَاكَ ، وَبِهٰذَا سَنَبِيعُهَا بِعَشَرَةِ أَضْعَافِ مَا كُنْتُ سَأَحْصُلُ عَلَيْهِ لَوْ بِعْتُهَا وَحْدِي . »

سَمِعْتُهُ يَتَنَاوَلُ مِجْدَافَيْهِ وَيُلْقِي بِهِمَا فِي ٱلمَاءِ ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : « ٱلآنَ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقْفِزَ إِلَى ٱلمَاءِ وَأَسْبَحَ إِلَى أَقْرَبِ مَكَانٍ مِنَ ٱلشَّاطِئِ .

وَيَبْدُو أَنَّهُ عَرَفَ مَا يَدُورُ فِي رَأْسِي ، لِأَنِّي أَحْسَسْتُ بِٱلسِّكِّينِ يَنْغَرِزُ فِي ظَهْرِي .

قَالَ : « أَنَا لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَحْذِفَ وَأُرَاقِبَكَ فِي نَفْسِ ٱلوَقْتِ . لِذَا يَجِبُ أَنْ تُجَذِّفَ بِقُوَّةٍ تَكْفِي لِتَحْرِيكِ ٱلقَارِبِ بِنَا نَحْنُ ٱلٱثْنَيْنِ . »

جَذَبْتُ ٱلمِجْدَافَيْنِ وَأَنَا أُفَكِّرُ فِيمَا يُمْكِنُنِي أَنْ أَفْعَلَهُ . وَوَجَدْتُ أَنَّهُ مِنَ ٱلحِكْمَةِ أَنْ أَفْعَلَ مَا يَطْلُبُهُ مِنِّي ، فَقَدْ كَانَ سِكِّينُهُ فِي ظَهْرِي ، لِذَا وَاصَلْتُ ٱلتَّحْدِيفَ . وَعِنْدَمَا خَرَجْنَا إِلَى عُرْضِ ٱلبَحْرِ بَعِيدًا عَنِ ٱلبُحَيْرَةِ ، أَصْبَحَ مِنَ ٱلصَّعْبِ عَلَيَّ ٱلسِّبَاحَةُ إِلَى ٱلشَّاطِئِ . وَأَدَارَ ٱلإِشْبِيلِيُّ ٱلقَارِبَ نَحْوَ ٱلشَّرْقِ وَبَسَطَ شِرَاعًا .

الفَصْلُ الخامسَ عَشَرَ

شَيْطانُ البَحْرِ يَتْبَعُنا

هَبَّتْ رياحٌ قَوِيَّةٌ مِنَ الجَنوبِ ، وَكُنَّا قَدْ قَطَعْنا مَسافةً لا بَأْسَ بِها ذٰلِكَ الصَّباحَ . وَفي الظُّهْرِ تَناوَلْنا قَليلًا مِنْ كَعْكِ الذُّرةِ الَّذي كانَ الإشْبيليُّ قَدْ أَحْضَرَهُ ، ثُمَّ اسْتَسْلَمْتُ لِلنَّوْمِ .

اِسْتَيْقَظْتُ في المَساءِ وَسَأَلْتُ الإشْبيليَّ : « هَلْ تَرْغَبُ في النَّوْمِ قَليلًا وَأُواصِلُ أَنا التَّجْديف ؟ »

أَجابَ « كَلَّا ، أَنا لا أَثِقُ بِكَ ، فَرُبَّما لا أَسْتَيْقِظُ عَلى الإطْلاقِ ، وَإِذا اسْتَيْقَظْتُ فَقَدْ أَجِدُكَ أَدَرْتَ القارِبَ لِلْبَحْرِ عائِدَيْنِ إِلى لاباز . » وَلٰكِنَّهُ نامَ فِعْلًا ، وَقَدْ فَتَحَ إِحْدى عَيْنَيْهِ واضِعًا يَدَهُ عَلى السُّكَّينِ .

خَفَّتْ شِدَّةُ الرِّياحِ ، وَعِنْدَما بَزَغَ القَمَرُ رَأَيْتُ حَرَكَةً في البَحْرِ عَلى بُعْدِ

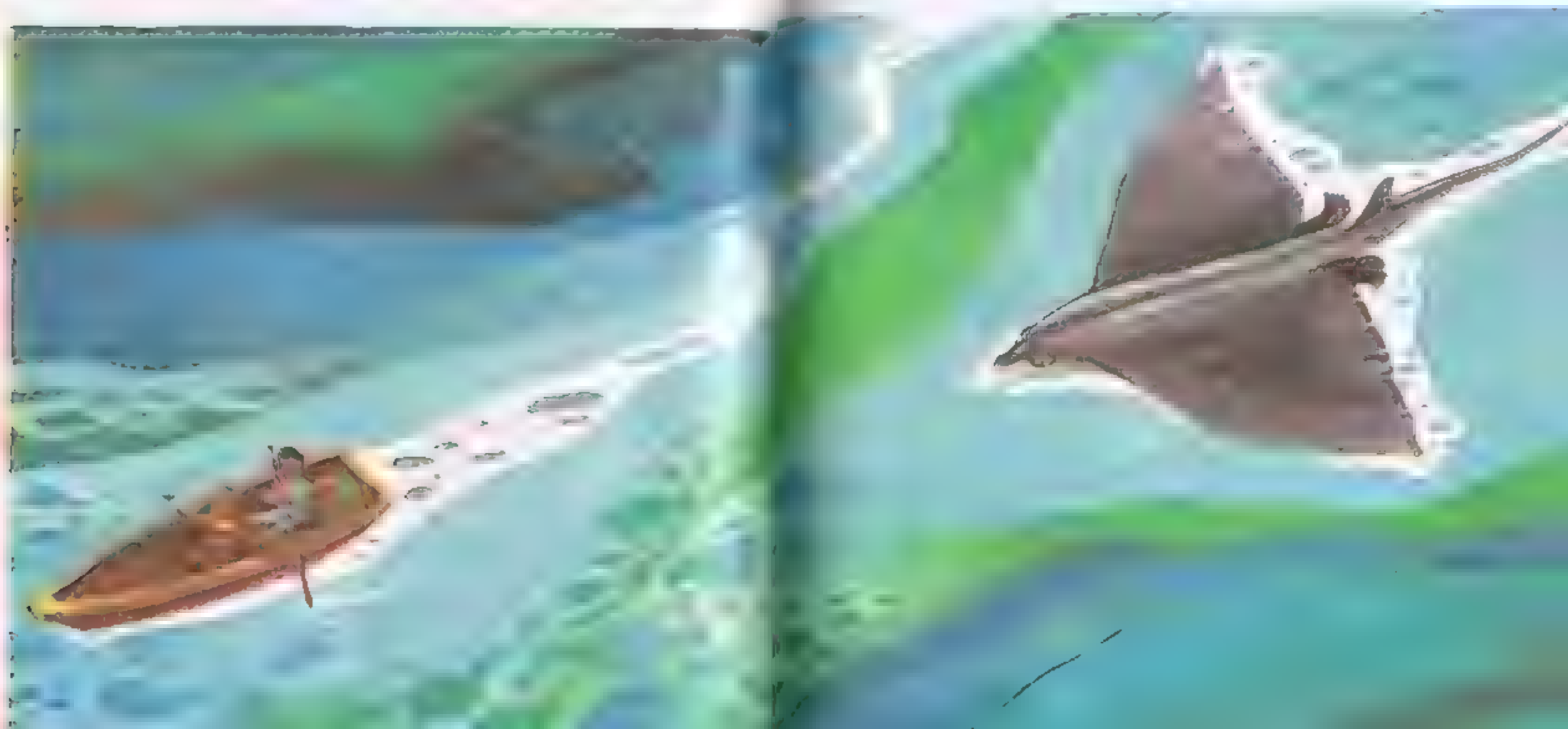

رُبْعِ مِيلٍ خَلْفَنا . لَمْ تَكُنْ مَوْجَةً ، وَلا يُمْكِنُ أَنْ تَكونَ مَوْجَةً لِأَنَّ ٱلْبَحْرَ كانَ هادِئًا تَمامًا . كانَ حَوْلَنا عَدَدٌ كَبيرٌ مِنْ أَسْماكِ ٱلْقِرْشِ ، لِذا اعْتَقَدْتُ أَوَّلَ ٱلْأَمْرِ أَنَّها تَلْتَهِمُ بَعْضَ ٱلْأَسْماكِ هُناكَ . بَعْدَ ذٰلِكَ شاهَدْتُ ٱلْحَرَكَةَ نَفْسَها مِنْ جَديدٍ ، وَفي هٰذِهِ ٱلْمَرَّةِ سَقَطَ ضَوْءُ ٱلْقَمَرِ عَلى ما يُشْبِهُ جَناحَي شَيْطانِ ٱلْبَحْرِ وَهُما يَرْتَفِعانِ وَيَنْخَفِضانِ . كانَ شَيْطانَ ٱلْبَحْرِ فِعْلًا .

كُنَّا قَدْ شاهَدْنا عَدَدًا مِنْ أَسْماكِ ٱلْقِرْشِ في ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ طافِيَةً عَلى سَطْحِ ٱلْماءِ تَسْتَمْتِعُ بِدِفْءِ ٱلشَّمْسِ ، لِذٰلِكَ لَمْ أَتَزَعْجْ عِنْدَما رَأَيْتُ إِحْداها تَسْبَحُ خَلْفَنا وَاسْتَسْلَمْتُ لِلنَّوْمِ .

عِنْدَ مُنْتَصَفِ ٱللَّيْلِ سَمِعْتُ أَصْواتًا خافِتَةً آتِيَةً مِنْ مَكانٍ قَريبٍ . هَلْ كُنْتُ أَحْلُمُ ؟ كَلّا ! كانَتْ أَصْواتًا حَقيقِيَّةً ! فَقَدْ بَدا واضِحًا في ضَوْءِ ٱلْقَمَرِ أَنَّ شَيْطانَ ٱلْبَحْرِ ٱلْعِمْلاقَ يَسْبَحُ عَلى بُعْدِ ثَلاثينَ مِتْرًا فَقَطْ خَلْفَنا .

قُلْتُ لِلإِشْبيلِيِّ : « ٱنْظُرْ ! هُناكَ شَيْءٌ يَسْبَحُ خَلْفَنا . »

قالَ : « نَعَمْ ، لَيْتَهُ يَسْبَحُ أَمامَنا حَتّى أَرْبُطَ فيهِ حَبْلًا وَنَصِلَ بِسُرْعَةٍ إِلى مَدينَةِ غوايْماس . »

وَضَحِكَ عَلى هٰذِهِ ٱلصُّورَةِ ٱلَّتي رَسَمَها في خَيالِهِ ، أَمّا أَنا فَجَلَسْتُ ساكِنًا أَنْظُرُ إِلى شَيْطانِ ٱلْبَحْرِ وَهُوَ يَسْبَحُ خَلْفَنا عَنْ قُرْبٍ . إِنَّهُ هُوَ نَفْسُهُ ٱلَّذي رَأَيْتُهُ مِنْ قَبْلُ أَوَّلَ ٱللَّيْلِ . كُنْتُ مُتَأَكِّدًا مِنْ ذٰلِكَ . إِنَّهُ شَيْطانُ ٱلْبَحْرِ .

قالَ ٱلإِشْبيلِيُّ : « لَقَدْ شَمَّ رائِحَةَ كَعْكِ ٱلذُّرَةِ . »

طَلَعَ ٱلنَّهارُ ، وَطَلَّ شَيْطانُ ٱلْبَحْرِ يَسْبَحُ خَلْفَنا . لَمْ يَقْتَرِبْ عَمّا كانَ مِنْ قَبْلُ فَلَمْ يَسْبَحْ أَسْرَعَ وَلا أَبْطَأَ مِنَ ٱلْقارِبِ ، وَحافَظَ عَلى ٱلْمَسافَةِ ٱلَّتي بَيْنَنا وَبَيْنَهُ .

سَأَلْتُ ٱلإِشْبيلِيَّ : « هَلْ تَتَذَكَّرُ أَوَّلَ يَوْمٍ كُنْتُ أَنا فيهِ عَلى ٱلسَّفينَةِ وَصِحْتَ أَنْتَ : (شَيْطانُ ٱلْبَحْرِ) وَخافَ ٱلْهِنْدِيُّ ؟ لَيْتَهُ كانَ مَعَنا حَتّى يَرى ٱلشَّيْطانَ ٱلْعِمْلاقَ . »

أَجابَ ٱلإِشْبيلِيُّ : « لَقَدْ شاهَدْتُ كَثيرًا مِنْ هٰذا ٱلسَّمَكِ ، وَلٰكِنَّ هٰذا ٱلشَّيْطانَ هُوَ أَكْبَرُهُمْ عَلى ٱلإِطْلاقِ . لا بُدَّ أَنَّهُ يَبْلُغُ سَبْعَةَ أَمْتارٍ عَلى ٱمْتِدادِ جَناحَيْهِ ، وَيَزِنُ طُنَّيْنِ تَقْريبًا (أَلْفَيْ كيلو غِرامٍ) وَلٰكِنَّ هٰذِهِ ٱلأَسْماكَ ٱلضَّخْمَةَ أَسْماكٌ صَديقَةٌ . لَقَدْ شاهَدْتُها تَتْبَعُ قارِبي طَوالَ يَوْمٍ كامِلٍ ، وَلٰكِنَّها لَمْ تَقْصِدْ أَيَّ ضَرَرٍ . إِنَّها بِٱلطَّبْعِ تَسْتَطيعُ أَنْ تَقْتُلَكَ بِسُهولَةٍ ، وَأَنْ تُحَطِّمَ قارِبَكَ بِلَمْسَةٍ بَسيطَةٍ إِنْ هِيَ أَرادَتْ ، وَلٰكِنَّها لا تُريدُ . »

مَرَّتْ ساعَةٌ سَبَحَ شَيْطانُ ٱلْبَحْرِ بَعْدَها أَمامَنا وَعِنْدَما مَرَّ بِٱلْقارِبِ شاهَدْتُ عَيْنَيْهِ ٱلصَّفْراوَيْنِ . وَبَدَتا كَأَنَّهُما مُثَبَّتَتَيْنِ عَلَيَّ ، عَلَيَّ وَحْدي ، وَلَيْسَ عَلى ٱلإِشْبيلِيِّ . رَأَيْتُ أَيْضًا فَمَهُ ، وَتَذَكَّرْتُ كَلِماتِ أُمّي عِنْدَما كُنْتُ طِفْلًا : « إِنَّ لَهُ سَبْعَةَ صُفوفٍ مِنَ ٱلأَسْنانِ . » لَقَدْ كانَتْ مُخْطِئَةً . لَيْسَتْ لَدَيْهِ أَيَّةُ أَسْنانٍ في فَكِّهِ ٱلْعُلْوِيِّ ، وَإِنَّما لَدَيْهِ مَجْموعَةٌ واحِدَةٌ مِنَ ٱلأَسْنانِ في فَكِّهِ ٱلسُّفْلِيِّ ، وَلَمْ تَكُنْ كَالسَّكاكينِ ، وَلَمْ تَكُنْ شَديدَةَ ٱلْبَياضِ .

اسْتَدارَ شَيْطانُ ٱلْبَحْرِ وَعادَ سابِحًا في دائِرَةٍ كَبيرَةٍ حَوْلَنا ، ثُمَّ ٱبْتَعَدَ عَنّا

وَعادَ مِنْ حَديدٍ ، وَلٰكِنْ هٰذِهِ ٱلمَرَّةُ كانَتْ دائِرَتُهُ أَصْغَرَ وَقَذَفَتِ ٱلأَمْواجُ ٱلَّتي أَثارَها بِقارِبِنا إِلى أَعْلى وَإِلى أَسْفَلَ .

قالَ ٱلإِسْبيلِيُّ : « لَقَدْ بَدَأْتُ أَضيقُ بِصَديقِنا ، وَإِذا ٱقْتَرَبَ أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ ، سَأَسْتَخْدِمُ ٱلرُّمْحَ . »

قُلْتُ في نَفْسي : « مِنَ ٱلأَفْضَلِ لَكَ أَلّا تُغْضِبَهُ . إِنَّ ٱلرُّمْحَ سَيَكونُ كَوَخْزَةِ دَبُّوسٍ . إِنَّهُ لَيْسَ مُجَرَّدَ سَمَكَةٍ . إِنَّهُ شَيْطانُ ٱلسَّمَكِ . »

فَكَّرْتُ في ذٰلِكَ وَلٰكِنْ لَمْ أَتَكَلَّمْ . فَقَدْ كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّهُ شَيْطانُ ٱلبَحْرِ . وَكانَتْ عَيْناهُ ٱلصَّفْراوانِ مُثَبَّتَتَيْنِ عَلَيَّ .

صَغُرَتِ ٱلدَّوائِرُ . وَنَحْنُ في وَسَطِها ، نَحْنُ وَٱللُّؤْلُؤَةُ . وَيَسْعى عَلَيَّ أَنْ أَقولَ أَنا وَٱللُّؤْلُؤَةُ . قُذِفَ بِٱلقارِبِ إِلى أَعْلى وَإِلى أَسْفَلَ ، وَمِنْ جانِبٍ إِلى جانِبٍ . وَكُنّا نَنْزَحُ ٱلماءَ مِنَ ٱلقارِبِ بِقُبَّعَتَيْنا لِنَحولَ دونَ أَنْ يَغْرَقَ . وَعَلى بُعْدِ نِصْفِ ميلٍ مِنّا كانَتْ هُناكَ جَزيرَةٌ تُسَمّى جَزيرَةَ ٱلمَوْتى . وَلَقَدْ سُمِّيَتْ بِهٰذا ٱلاسْمِ لِأَنَّ بَعْضَ ٱلهُنودِ كانوا يُقيمونَ عَلَيْها ، وَكانوا يَقْتُلونَ أَيَّ شَخْصٍ يَنْزِلُ بِها .

قالَ ٱلإِسْبيلِيُّ : « سَنَذْهَبُ إِلى ٱلجَزيرَةِ . »

قُلْتُ : « نَعَمْ . هٰذِهِ هِيَ فُرْصَتُنا ٱلأَفْضَلُ . »

بَدا شَيْطانُ ٱلبَحْرِ وَكَأَنَّهُ يَفْهَمُ ما كُنّا نُخَطِّطُ لَهُ ، فَسَبَحَ بَعيدًا ثُمَّ ٱخْتَفى عَنِ ٱلأَنْظارِ . وَهٰكَذا وَصَلْنا إِلى ٱلجَزيرَةِ بِسَلامٍ .

ٱلفَصْلُ ٱلسّادِسَ عَشَرَ

جَزيرَةُ ٱلمَوْتى

كانَتْ جَزيرَةُ ٱلمَوْتى ، مِثْلَ سائِرِ جُزُرِ بَحْرِ فِيرْمِلْيون بِها خَليجٌ رَمْليٌّ أَدْخَلْنا ٱلقارِبَ فيهِ وَشَدَدْناهُ إِلى ٱلشّاطِئِ . وَصَعِدْنا تَلًّا صَغيرًا ، وَأَلْقَيْنا نَظْرَةً عَلى ٱلجَزيرَةِ مِنْ فَوْقِهِ .

كانَتْ جَزيرَةً صَغيرَةً عالِيَةً مِنَ ٱلتِّلالِ ٱلكَبيرَةِ ، وَكانَ ٱلهُنودُ يَعيشونَ فَوْقَها في ٱلخَلاءِ بِلا أَكْواخٍ . وَرَأَيْنا نيرانَهُمُ ٱلمُشْتَعِلَةَ في أَقْصَى ٱلجَنوبِ وَقَدِ ٱلتَفّوا حَوْلَها ، وَٱصْطَفَّتْ زَوارِقُهُمْ عَلى ٱلشّاطِئِ .

لَمْ يَرَنا أَحَدٌ وَنَحْنُ نُبْحِرُ داخِلَ ٱلخَليجِ . وَقَلَبْنا ٱلقارِبَ كَيْ نُفْرِغَهُ مِنَ ٱلمِياهِ ، ثُمَّ تَناوَلْنا مَزيدًا مِنْ كَعْكِ ٱلذُّرَةِ ، وَحَلَّ ٱلظَّلامُ .

قالَ ٱلإِسْبيلِيُّ . « سَوْفَ نَنْتَظِرُ ساعَةً وَهٰذا يُعْطي شَيْطانَ ٱلبَحْرِ فُرْصَةً لِيَجِدَ زَوْرَقًا آخَرَ يَتْبَعُهُ . »

قُلْتُ : « تَسْتَطيعُ أَنْ تَبْقَى ساعَةً أَوْ يَوْمًا ، وَلٰكِنَّهُ سَيَظَلُّ هُناكَ . »

سَأَلَني : « ماذا تَعْني ؟ »

أَجَبْتُ : « أَعْني أَنَّ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءَ هُناكَ هُوَ شَيْطانُ ٱلبَحْرِ . »

ضَحِكَ وَقالَ : « أَنا أَعْرِفُ أَنَّ ٱلهُنودَ ٱلبُلَهاءَ يَعْتَقِدونَ في شَيْطانِ ٱلبَحْرِ

ولٰكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ في ٱلمَدْرَسةِ وَتَسْتَطيعُ قِراءةَ ٱلكُتُبِ . أَنْتَ أَحَدُ أَفْرادِ أُسْرةٍ سالازار ٱلقَويَّةِ . يُدْهِشُني أَنَّكَ تُصَدِّقُ تِلْكَ ٱلقِصَّةَ ٱلخُرافيَّةَ . »

قُلْتُ : « إِنّي أُومِنُ تَمامًا أَنَّهُ شَيْطانُ ٱلبَحْرِ ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَنْتَظِرُ في ٱلبَحْرِ مِنْ أَجْلِ ٱللُّؤْلُؤةِ ، وَسَوْفَ يَظَلُّ مُنْتَظِرًا حَتّى يَحْصُلَ عَلَيْها . »

وَقَفَ وَنَظَرَ إِلَيَّ بِٱزْدِراءٍ حَيْثُ أَجْلِسُ ، وَقالَ : « لَوْ أَنِّا قَذَفْتُ بِٱللُّؤْلُؤةِ إِلى ٱلبَحْرِ لأَحَدِها ٱلشَّيْطانُ وَسَحَ بَعدًا ، تَرَكَنا لِحالِنا . هَلْ هَذا ما تَعْتَقِدُهُ ؟ »

قُلْتُ : « نَعَمْ . »

أَدارَ ظَهْرَهُ لي وَسارَ في ٱلظَّلامِ كَأَنَّهُ يُريدُ أَنْ يَبْتَعِدَ عَنّي إِلى أَقْصى ما يَسْتَطيعُ

بَزَغَ ٱلقَمَرُ . وَسَمِعْتُ في ٱلتَّوِّ صَوْتَ ٱلطُّيورِ تُحَلِّقُ في ٱلهَواءِ : لَقَدْ أَخافَها شَيْءٌ ما .

نَظَرْتُ إِلى أَعْلى فَشاهَدْتُ رَجُلًا يَقِفُ عَلى ٱلتَّلِّ وَمِنْ خَلْفِهِ ٱلسَّماءُ . قَفَزْتُ مِنْ مَكاني ، وَلَمْ أُنادِ ٱلإِشْبيليَّ وَقُلْتُ في نَفْسي : « هٰذِهِ فُرْصَةٌ لِلْهُروبِ . سَأَتَسَلَّقُ ٱلتَّلَّ وَأُخْبِرُ هٰذا ٱلهِنْدِيَّ بِسَبَبِ مَجيئي إِلى ٱلجَزيرةِ وَأَطْلُبُ مَعونَتَهُ . سَوْفَ يَفْهَمُ كُلَّ شَيْءٍ عَنْ شَيْطانِ ٱلبَحْرِ . »

كانَتْ خُطَّةً مَليئةً بِٱلأَخْطارِ وَقَدْ تَنْجَحُ . لٰكِنَّ ٱلإِشْبيليَّ رَأى هوَ أَيْضًا ٱلهِنْدِيَّ فَصاحَ : « هَيّا ، لِنَرْحَلْ . »

جاءَ هُنودٌ آخَرونَ وَٱنْضَمّوا إِلى ٱلرَّجُلِ ٱلأَوَّلِ ، فَجَرّى ٱلإِشْبيليُّ إِلى ٱلقارِبِ وَعَدَلَهُ ، وَٱلْتَقَطَ كُلَّ أَمْتِعَتِنا مِنْ فَوْقِ ٱلرِّمالِ وَوَضَعَها فيهِ ثُمَّ صاحَ بي : « أَسْرِعْ ! »

مَشَيْتُ إِلى ٱلقارِبِ وَعاوَنْتُهُ في دَفْعِهِ إِلى ٱلمياهِ . لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ مَكانَ ٱللُّؤْلُؤةِ وَتَساءَلْتُ في نَفْسي : « هَلْ هيَ في ٱلقارِبِ ، أَمْ في جَيْبِهِ ؟ »

سَأَلَني : « لَعَلَّكَ تُفَضِّلُ ٱلبَقاءَ ؟ ٱلهُنودُ هُنا يَحْفِرونَ حُفْرَةً في ٱلرِّمالِ وَيَضَعونَ فيها أَيَّ أَسيرٍ بِحَيْثُ لا يَظْهَرُ مِنْهُ إِلّا رَأْسُهُ فَقَطْ ، ثُمَّ يَتْرُكونَ

ٱلحَيَواناتِ تَنْهَشُ وَجْهَهُ . لٰكِنْ رُبَّما تُفَضِّلُ ذٰلِكَ عَلى شَيْطانِ ٱلبَحْرِ ؟ »

كانَ ٱلقارِبُ في ٱلماءِ فَٱلْتَقَطَ ٱلإِشْبيليُّ ٱلمِجْدافَيْنِ قائِلًا : « حَسَنًا ، أَنَذْهَبُ أَمْ نَبْقَى ؟ »

كانَ ٱلهُنودُ يَهْبِطونَ مِنْ فَوْقِ ٱلتَّلِّ وَهُمْ يَصيحونَ بِغَضَبٍ ، فَنَزَلْتُ إِلى ٱلقارِبِ .

كانَ ٱلقَمَرُ بَدْرًا ، وَكانَ ٱلهَواءُ صافِيًا وَٱلبَحْرُ كَٱلفِضَّةِ ، وَلَمْ يَكُنْ هُناكَ أَيُّ أَثَرٍ لِشَيْطانِ ٱلبَحْرِ . جَذَفْنا مَعًا بِقُوَّةٍ خَشْيَةَ أَنْ يُسْرِعَ ٱلهُنودُ إِلى قَوارِبِهِمْ وَيَتْبَعونا . وَظَلَلْنا نَسْمَعُ صِياحَهُمْ لِفَتْرَةٍ طَويلَةٍ ، وَلٰكِنَّهُمْ لَمْ يُحاوِلوا أَنْ يَتْبَعونا .

عِنْدَما ٱبْتَعَدْنا عَنِ ٱلجَزيرَةِ ، ٱشْتَدَّتِ ٱلرِّياحُ فَرَفَعَ ٱلإِشْبيليُّ ٱلشِّراعَ ، وَأَبْحَرْنا في ٱتِّجاهِ ٱلشَّرْقِ .

ٱلفَصْلُ ٱلسّابِعَ عَشَرَ

شَيْطانُ ٱلبَحْرِ يَعودُ

عِنْدَما أَشْرَقَتِ ٱلشَّمْسُ كُنَّا قَدِ ٱبْتَعَدْنا عَنْ جَزيرَةِ ٱلمَوْتى . كانَ ٱلهَواءُ

ساكِنًا وَٱلبَحْرُ هادِئًا ، وَخَيَّمَتْ طَبَقَةٌ رَقيقَةٌ مِنَ ٱلضَّبابِ ٱلأَحْمَرِ فَوْقَنا ، وَلٰكِنّي لَمْ أَسْتَطِعْ رُؤْيَةَ شَيْطانِ ٱلبَحْرِ .

مَرَّتْ ساعَةٌ ، ثُمَّ ٱرْتَفَعَتِ ٱلمِياهُ عَلى بُعْدِ مِئَةِ مِتْرٍ خَلْفَنا عَلى هَيْئَةِ تَلٍّ ، وَمِنْ وَسَطِ هٰذا ٱلتَّلِّ بَرَزَ ٱلشَّيْطانُ .

فَمَرَ عالِيًا في ٱلهَواءِ أَعْلى مِنْ أَيِّ شَيْطانِ بَحْرٍ رَأَيْتُهُ يَقْفِزُ مِنْ قَبْلُ . إِرْتَفَعَ لِدَرَجَةِ أَنّي رَأَيْتُ بَطْنَهُ ٱلأَبْيَضَ وَذَيْلَهُ ٱلطَّويلَ . وَٱسْتَمَرَّ هٰكَذا لَحْظَةً ثُمَّ هَبَطَ وَٱرْتَطَمَ بِٱلماءِ مُحْدِثًا دَوِيًّا مُرْعِبًا .

قالَ ٱلإِشْبيلِيُّ : « إِنَّ صَديقَكَ يُرينا فُتُوَّتَهُ . »

تَعَجَّبْتُ كَيْفَ أَنَّهُ حَتّى ٱلآنَ لا يَعْرِفُ أَنَّ هٰذا هُوَ شَيْطانُ ٱلبَحْرِ .

وَضَعَ ٱلإِشْبيلِيُّ ٱللُّؤْلُؤَةَ في مَكانٍ أَميرٍ بِمُؤَخَّرِ ٱلقارِبِ ، ثُمَّ ٱلْتَقَطَ ٱلرُّمْحَ قائِلًا : « لَقَدْ قَتَلْتُ تِسْعَةً مِنْهُ . إِنَّ قَتْلَهُ لَيْسَ صَعْبًا ، إِذْ لَيْسَ لَدَيْهِ غِطاءٌ سَميكٌ مِنَ ٱلشَّحْمِ . إِنَّ قَتْلَهُ أَسْهَلُ مِنْ قَتْلِ أَضْخَمِ أَسْماكِ ٱلقِرْشِ — ٱلقِرْشِ ٱلأَشْهَبِ ٱلضَّخْمِ . »

عاصَ شَيْطانُ ٱلبَحْرِ في ٱلماءِ وَغابَ عَنِ ٱلأَنْظارِ حَتّى مُنْتَصَفِ ٱلنَّهارِ ، لَعَلَّهُ كانَ يَسْبَحُ عَلى مَسافَةٍ قَريبَةٍ خَلْفَنا ، بَيْنَما كانَ ٱلإِشْبيلِيُّ يَحْكي لي كَيْفَ أَنَّ قَتْلَهُ أَمْرٌ سَهْلٌ وَأَنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً .

رَأَيْتُ خاحِيَهِ أَوَّلًا ، وَعِنْدَما مَرَّ بِٱلقارِبِ ، رَأَيْتُ عَيْنَيْهِ ٱلصَّفْراوَيْنِ

تَدوراِن وَتَنْظُراِن إِلَيَّ كَما فَعَلَتا مِنْ قَبْلُ . وَبَدَتا وَكَأَنَّهُما تَقولانِ : « ٱللُّؤْلُؤَةُ مِلْكي ، اقْذِفْ بِها إِلى ٱلبَحْرِ . إِنَّها لَمْ تَجْلُبْ لَكَ سِوى ٱلمَتاعِبِ ، وَلَنْ تَنْعَمَ بِسَعادَةٍ أَوْ راحَةٍ حَتّى تُعيدَها . »

بَدا عَلى ٱلإِشْبيلِيِّ أَنَّهُ يَقْرَأُ أَفْكاري ، فَضَحِكَ . لَقَدْ أَيْقَنَ في تِلْكَ ٱللَّحْظَةِ أَنّي لَسْتُ سِوى طِفْلٍ أَبْلَهَ — أَوْ رَجُلٍ فَقَدَ عَقْلَهُ .

سَبَحَ شَيْطانُ ٱلبَحْرِ أَبْعَدَ مِنْ مَدى ٱلرُّمْحِ ، ثُمَّ تَقَدَّمَ إِلى ٱلأَمامِ ثُمَّ عادَ بِبُطْءٍ في دائِرَةٍ واسِعَةٍ . إِلْتَقَطَهُ ٱلإِشْبيلِيُّ وَفي يَدِهِ ٱلرُّمْحُ ٱلثَّقيلُ . كانَ عَلَيَّ أَنْ أَحْبُوَ عَلى يَدَيَّ وَرُكْبَتَيَّ طولَ ٱلقارِبِ حَتّى أَصِلَ إِلى ٱللُّؤْلُؤَةِ ، وَسَيَرى ٱلإِشْبيلِيُّ تَحَرُّكي ؛ لِذا قَرَّرْتُ أَنْ أَنْتَظِرَ حَتّى يَقْتَرِبَ شَيْطانُ ٱلبَحْرِ ، وَيُرَكِّزَ ٱلإِشْبيلِيُّ عَيْنَيْهِ عَلَيْهِ .

نَظَرَ إِلَيَّ ٱلإِشْبيلِيُّ قائِلًا : « لَقَدْ بَدَأْتُ أَفْهَمُ بَعْضَ ٱلأُمورِ . لَقَدْ أَخَذْتَ ٱللُّؤْلُؤَةَ مِنَ ٱلمُتْحَفِ بَعْدَ أَنْ تَحَطَّمَتْ سُفُنُ أَبيكَ في ٱلبَحْرِ ، ثُمَّ أَبْحَرْتَ طَوالَ ٱللَّيْلِ إِلى ٱلبُحَيْرَةِ حَيْثُ وَجَدْتَ ٱللُّؤْلُؤَةَ لِتُعيدَها إِلى شَيْطانِ ٱلبَحْرِ . هَلْ هٰذا صَحيحٌ ؟ » وَلَمْ أُجِبْهُ .

قالَ : « حَسَنًا ! سَأَقولُ لَكَ شَيْئًا لا يَعْرِفُهُ سِواي . في هٰذِهِ ٱلسّاعَةِ كانَ مِنَ ٱلمُمْكِنِ أَنْ تَكونَ سُفُنُ أَبيكَ مُنْجِرَةً في أَمانٍ ، أَوْ راسِيَةً في ٱلخَليجِ سالِمَةً ، وَكانَ مِنَ ٱلمُمْكِنِ أَنْ يَكونَ أَبوكَ حالِسًا في بَيْتِهِ سالِمًا يَتَناوَلُ عَشاءَهُ . »

غَضِبْتُ أَشَدَّ ٱلغَضَبِ ، وَلٰكِنّي جَلَسْتُ هادِئًا لا أَتَحَرَّكُ ، إِلّا أَنَّهُ رَأى

ذٰلِكَ عَلى وَجْهي ، فَقال : « لا تَغْضَبْ . أُريدُ فَقَطْ أَنْ أُخْبِرَكَ لِماذا تَحَطَّمَتِ ٱلسُّفُنُ عَلى ٱلصُّخورِ . لَقَدْ كانَتْ سُفُنًا مُمْتازَةً – لا يُوجَدُ أَحْسَنُ مِنْها ، وَكانَ أَبوكَ رُبَّانًا ماهِرًا . وَلَمْ تَكُنِ ٱلعاصِفَةُ أَسْوأَ مِنْ عَواصِفَ كَثيرَةٍ سابِقَةٍ . إِذًا لِماذا حَدَثَ ما حَدَثَ ؟ أَ تَسْأَلُ لِماذا ؟ »

قُلْتُ : « أَنا لا أَسْأَلُ عَنْ شَيْءٍ . »

قالَ : « لٰكِنّي سَأُخْبِرُكَ لِماذا . بَيْنَما أُراقِبُ أَنا شَيْطانَ ٱلبَحْرِ قَدْ تَأْخُذُ أَنْتَ ٱللُّؤْلُؤَةَ وَتَقْذِفُ بِها إِلى ٱلبَحْرِ . حِينَئِذٍ لا أَمْلِكُ إِلّا أَنْ أَقْتُلَكَ . لَمْ يَكُنْ شَيْطانُ ٱلبَحْرِ ٱلسَّبَبَ في مَوْتِ أَبيكَ . »

كانَ شَيْطانُ ٱلبَحْرِ لا يَزالُ بَعيدًا عَنّا ، وَلَمْ يَبْدُ أَنَّهُ في عَجَلَةٍ لِلِٱنْقِضاضِ عَلَيْنا . لٰكِنَّ ٱلإِشْبيلِيَّ رَبَطَ طَرَفًا واحِدًا مِنْ حَبْلِ ٱلرُّمْحِ ، وَوَضَعَ بَقِيَّةَ ٱلحَبْلِ عَلى شَكْلِ دائِرَةٍ عِنْدَ قَدَمَيْهِ ، وَٱسْتَأْنَفَ حَديثَهُ قائِلًا : « عِنْدَما كانَتِ ٱلعاصِفَةُ تَتَجَمَّعُ قُلْتُ لِأَبيكَ : لا بُدَّ أَنْ نَعودَ وَنَدْخُلَ خَليجَ لاس أَنيماس . فَضَحِكَ مِنْ كَلامي وَقالَ : إِنَّ ٱلرِّياحَ في صالِحِنا ، وَنَسْتَطيعُ أَنْ نَصِلَ إِلى جَزيرَةِ سيرالْقو قَبْلَ أَنْ تُدْرِكَنا ٱلعاصِفَةُ . هٰذا ما قَرَّرَهُ هوَ ، وَكانَ قَرارُهُ خاطِئًا . لَقَدْ أَصْدَرَ هٰذا ٱلقَرارَ ٱلخاطِئَ بِسَبَبِ ٱللُّؤْلُؤَةِ لِأَنَّهُ قَدَّمها لِمُتْحَفِ ٱلمَدينَةِ ، وَكانَ مُتَأَكِّدًا أَنَّهُ سَيَنْجو مِنْ أَيَّةِ عاصِفَةٍ . هوَ لَمْ يَقُلْ ذٰلِكَ ، وَلٰكِنّي كُنْتُ أَرى ٱللُّؤْلُؤَةَ في مُخَيِّلَتِهِ . عَرَفْتُ ذٰلِكَ مِنَ ٱلأُسْلوبِ ٱلَّذي كانَ يَتَكَلَّمُ بِهِ وَٱلطَّريقَةِ ٱلَّتي كانَ يَنْظُرُ بِها . »

رَفَعَ ٱلإِشْبيلِيُّ رَأْسَهُ وَتَطَلَّعَ إِلى ٱلسَّماءِ وَرَفَعَ يَدَهُ كَيْ يُرِيَني كَيْفَ كانَ أَبي يَبْدو . هٰكَذا بَدا أَبي في غُرْفَةِ مَنْزِلِنا عِنْدَما أَعْطَى ٱللُّؤْلُؤَةَ إِلى ٱلعَمِّ غالارْدو ، هٰكَذا بَدا أَبي عِنْدَما قالَ لِأُمّي : « سَيَشْمَلُ ٱللّٰهُ أُسْرَتَنا بِرِعايَتِهِ ٱلآنَ وَإِلى ٱلأَبَدِ . »

واصَلَ ٱلإِشْبيلِيُّ حَديثَهُ قائِلًا : « كُنْتُ أُدْرِكُ مِنْ أُسْلوبِهِ في ٱلكَلامِ أَنَّهُ يُدْرِكُ أَنَّ ٱللّٰهَ يُمْسِكُ بِيَدِهِ . »

رَفَعَ ٱلرُّمْحَ كَأَنَّهُ يَسْتَعِدُّ لِرَمْيِهِ ، ثُمَّ قالَ : « إِذا كانَ لَكَ أَنْ تُفَكِّرَ مِنْ جَديدٍ في سَرِقَةِ ٱللُّؤْلُؤَةِ مِنَ ٱلمُتْحَفِ هَلْ تَفْعَلُ ذٰلِكَ ؟ طَبْعًا لا ! لَنْ تَسْرِقَها ، خُصوصًا بَعْدَ أَنْ عَرَفْتَ لِماذا تَحَطَّمَتِ ٱلسُّفُنُ . كَذٰلِكَ لَنْ تَسْرِقَها مِنْ صَديقِكَ ٱلطَّيِّبِ غاسْبَر رُويز ، ٱلإِشْبيلِيِّ – أَ لَيْسَ كَذٰلِكَ ؟ »

إِنْتَظَرَ أَنْ أُجيبَ وَلٰكِنّي بَقيتُ صامِتًا . وَجَلَسْتُ أُراقِبُ شَيْطانَ ٱلبَحْرِ يَسْبَحُ خَلْفَنا . كُنْتُ قَدْ قَرَّرْتُ ما سَأَفْعَلُهُ سَواءٌ أَ قَتَلَ شَيْطانَ ٱلبَحْرِ أَوْ لَمْ يَقْتُلْهُ – قَرَّرْتُ ما سَأَفْعَلُهُ .

الفَصْلُ الثّامِنَ عَشَرَ

المَوْتُ

سَبَحَ شَيْطانُ البَحْرِ مَرَّةً أُخرى في دائِرةٍ كَبيرةٍ أَبْعَدَ مِنْ مَدى الرُّمْحِ ، ثُمَّ عادَ وَاقْتَرَبَ أَكْثَرَ مِمَّا كانَ . وَكانَتْ عَيْناهُ الصَّفْراوانِ مُثَبَّتَتَيْنِ عَلى الإِشْبيلِيِّ وَلَيْسَ عَلَيَّ وَكَأَنَّهُ أَرادَ أَنْ يَقولَ : « إِيّاكَ أَنْ تَجْرُؤَ عَلى رَمْيي بِهٰذا الشَّيْءِ الَّذي في يَدِكَ ! »

أَطْلَقَ الإِشْبيلِيُّ صَيْحَةً عالِيَةً ، وَسَمِعْتُ الرُّمْحَ يَنْطَلِقُ مِنْ يَدِهِ يَتْبَعُهُ الحَبْلُ . وَعَلِقَ الحَبْلُ بِقَدَمي وَقَذَفَ بي إِلى جانِبِ القارِبِ ، وَاعْتَقَدْتُ أَنَّهُ سَوْفَ يَقْذِفُ بي إِلى البَحْرِ ، وَلٰكِنْ بِطَريقَةٍ ما انْفَكَّ الحَبْلُ مِنْ قَدَمي . وَرَأَيْتُ ، وَأَنا راقِدٌ عَلى جانِبِ القارِبِ ، الرُّمْحَ الطَّويلَ يَرْتَفِعُ إِلى أَعْلى ثُمَّ يَهْوي لِيَنْغَرِزَ في جِسْمِ شَيْطانِ البَحْرِ بَيْنَ جَناحَيْهِ . وَعِنْدَئِذٍ انْجَذَبَ حَبْلُ الرُّمْحِ بِعُنْفٍ فَوَثَبَ القارِبُ إِلى أَعْلى ثُمَّ عادَ إِلى سَطْحِ الماءِ . وَانْجَذَبَ الحَبْلُ مَرَّةً أُخرى فانْدَفَعَ القارِبُ إِلى الأَمامِ نَحْوَ الشَّرْقِ .

قالَ الإِشْبيلِيُّ : « إِنَّ صَديقَكَ يَأْخُذُنا في الاتِّجاهِ الصَّحيحِ ، وَإِذا سِرْنا بِهٰذِهِ السُّرْعَةِ فَسَوْفَ نَصِلُ إِلى غوايْماس في ساعَةٍ مُبَكِّرَةٍ مِنَ الغَدِ . »

لٰكِنَّ شَيْطانَ البَحْرِ سَبَحَ نَحْوَ الشَّرْقِ مَسافَةً قَصيرَةً قَبْلَ أَنْ يَسْتَديرَ وَيَتَّجِهَ إِلى الغَرْبِ . كانَ يَتَحَرَّكُ بِبُطْءٍ فَلَمْ تَتَسَرَّبِ المِياهُ إِلى القارِبِ ، وَكانَ يَسْبَحُ في خَطٍّ مُسْتَقيمٍ . قالَ الإِشْبيلِيُّ : « إِنَّ صَديقَكَ يَسيرُ في اتِّجاهٍ خاطِئٍ ، وَلٰكِنَّ

هٰذِهِ الأَسْماكَ تُتْعِبُ بِسُرْعَةٍ . »

انْقَضَى الصَّباحُ ، وَحَلَّ الظُّهْرُ ، وَما زالَ شَيْطانُ البَحْرِ يَسْبَحُ بِبُطْءٍ في اتِّجاهِ الغَرْبِ .

ذَهَبَ الإِشْبيلِيُّ إِلى مُقَدِّمَةِ القارِبِ وَنَظَرَ إِلى الرُّمْحِ وَقَدِ انْغَرَزَ في ظَهْرِ شَيْطانِ البَحْرِ ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ ، وَكُنْتُ أَتَساءَلُ : « هَلْ أَدْرَكَ أَنَّ هٰذا هُوَ شَيْطانُ البَحْرِ وَلَيْسَ سَمَكَةً مِنَ الأَسْماكِ الَّتي لا يَخْشاها ؟ »

وَقَفَ الإِشْبيلِيُّ وَاسْتَلَّ سِكّينَهُ الطَّويلَ ، وَاعْتَقَدْتُ أَنَّهُ يَنْوي قَطْعَ الحَبْلِ الَّذي يَرْبُطُنا بِالشَّيْطانِ . رُبَّما فَكَّرَ في ذٰلِكَ فِعْلًا لَحْظَةً واحِدَةً ، وَلٰكِنَّهُ عادَ وَقالَ : « لا ! لا ! لا ! » وَأَعادَ سِكّينَهُ ، وَبَدَأَ يَجْذِبُ الحَبْلَ جانِبًا وَبِسُرْعَةٍ .

انْدَفَعَ القارِبُ إِلى الأَمامِ ، وَاسْتَمَرَّ شَيْطانُ البَحْرِ يَسْبَحُ كَما كانَ يَفْعَلُ مِنْ قَبْلُ . وَأَخيرًا اقْتَرَبْنا مِنْهُ بِحَيْثُ كُنْتُ أَسْتَطيعُ أَنْ أَضَعَ يَدي عَلى ذَيْلِهِ .

رَبَطَ الإِشْبيلِيُّ الحَبْلَ في مُقَدِّمَةِ القارِبِ ، وَخَلَعَ قُبَّعَتَهُ ثُمَّ أَمْسَكَ سِكّينَهُ وَأَخَذَ نَفَسًا عَميقًا ثُمَّ رَفَرَهُ ، وَكَرَّرَ ذٰلِكَ مَرَّةً ثانِيَةً وَثالِثَةً ، كَما لَوْ كانَ يَسْتَعِدُّ لِغَوْصَةٍ طَويلَةٍ .

قُلْتُ في نَفْسي : « لَقَدْ قَرَّرَ أَنْ يَقْتُلَ شَيْطانَ البَحْرِ مَهْما اسْتَغْرَقَ ذٰلِكَ مِنْ وَقْتٍ ، وَمَهْما كانَ الثَّمَنُ . إِنَّهُ يُريدُ أَنْ يَفْعَلَ ذٰلِكَ حَتّى يُثْبِتَ أَنَّهُ هُوَ — غاسْبَر رُويز — الإِشْبيلِيُّ ، أَشْجَعُ مِنْ رامون سالازار . »

نَهَضْتُ واقِفًا وَأَمْسَكْتُ سِكّيني بِيَدي وَصِحْتُ : « سَنَقْتُلُهُ مَعًا . »

نَظَرَ ٱلإِسْبيليُّ إلى سِكِّيني وَضَحِكَ قائِلًا : « بِهٰذا ٱلسِّكِّينِ لا تَسْتَطيعُ أَنْ تَقْتُلَ جَدَّتَهُ . اِجْلِسْ وَتَشَبَّثْ بِجانِبِ ٱلقارِبِ . لَوْ بَدَأَتِ ٱلسَّمَكَةُ تَغوصُ فَٱقْطَعِ ٱلحَبْلَ حَتّى لا تَغوصَ أَنْتَ وَٱلقارِبُ مَعَها ، وَتَذَكَّرْ ياصَديقي ، لا تَلْمِسِ ٱللُّؤْلُؤَةَ . »

عِنْدَئِذٍ قَفَزَ ٱلإِسْبيليُّ وَهَبَطَ عَلى ظَهْرِ شَيْطانِ ٱلبَحْرِ ٱلعَريضِ . هَبَطَ عَلى

رُكْبَتَيْهِ وَتَقَدَّمَ نَحْوَ ٱلرُّمْحِ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِيَدٍ وَأَمْسَكَ ٱلسِّكِّينَ بِيَدِهِ ٱلأُخْرى . كانَ يَبْدو أَنَّ شَيْطانَ ٱلبَحْرِ لَمْ يَشْعُرْ وَلَمْ يُدْرِكْ ما حَدَثَ ، اِسْتَمَرَّ يَسْبَحُ وَنِصْفُ جِسْمِهِ خارِجَ ٱلماءِ وَنِصْفُهُ ٱلآخَرُ غاطِسٌ دونَ أَيِّ تَغْييرٍ .

أَغْمَدَ ٱلإِسْبيليُّ سِكِّينَهُ بِكُلِّ قُوَّتِهِ في جِسْمِ شَيْطانِ ٱلبَحْرِ ، أَسْفَلَ ٱلرَّأْسِ تَمامًا . فَقَفَزَ ٱلشَّيْطانُ إلى أَعْلى حَتّى إِنَّني رَأَيْتُ ذَيْلَهُ قَبْلَ أَنْ يَطْعَنَهُ ٱلإِسْبيليُّ

طَعْنَةً ثانيةً . وَكانَتِ الأَمْواجُ الصَّغيرةُ الَّتي تُغَطّي ظَهْرَهُ مُمْتَزِجةً بِدمائِهِ . وَضَرَبَ الماءَ بِذَيْلِهِ وَانْبَعَثَ مِنْ جَوْفِهِ صَوْتٌ عَميقٌ ، وَرَفَعَ جَناحَيْهِ عَلى ظَهْرِهِ كَما لَوْ كانَ يُريدُ أَنْ يُزيحَ بِهِما الإِشْبيليَّ . ثُمَّ غاصَ فَجَذَبَ الحَبْلَ وَراءَهُ وَاندَفَعَ القارِبُ إِلى الأَمامِ ، وَسَقَطَ كُلُّ طَعامِنا في الماءِ .

لَمْ أَجِدْ فُرْصَةً أَقْطَعُ فيها الحَبْلَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَفِيَ شَيْطانُ البَحْرِ عَنِ الأَنْظارِ ، فَغاصَتْ مُقَدِّمَةُ القارِبِ وَغَطَّتْها مَوْجَةٌ . وَعِنْدَما بَدَأْنا نَغوصُ انْقَطَعَ الحَبْلُ . كانَ الإِشْبيليُّ جاثِيًا عَلى رُكْبَتَيْهِ مُمْسِكًا الرُّمْحَ بِيَدَيْهِ ، رُبَّما لِيَغْرِزَهُ أَكْثَرَ وَأَكْثَرَ . وَلٰكِنَّ طَرَفَ الحَبْلِ المَقْطوعِ انْدَفَعَ نَحْوَهُ وَالْتَفَّ حَوْلَهُ عِدَّةَ مَرّاتٍ وَقَيَّدَهُ حَتّى أَصْبَحَ لا يَسْتَطيعُ الحَرَكَةَ .

لَمْ يَنْطِقِ الإِشْبيليُّ بِكَلِمَةٍ ، وَلَمْ يُطْلِقْ صَرْخَةً . كانَ ظَهْرُهُ مُواجِهًا لي ، فَشاهَدْتُ عَلَيْهِ الصُّوَرَ المَرْسومَةَ عَلَيْهِ بِاللَّوْنَيْنِ الأَحْمَرِ وَالأَخْضَرِ . وَغَطَسَ الإِشْبيليُّ وَهُوَ لا يَزالُ مُمْسِكًا بِالرُّمْحِ .

أَفْرَغْتُ القارِبَ مِنَ الماءِ ، وَاسْتَعَدْتُ المِجْذافَيْنِ مِنَ البَحْرِ ، وَكانا عَلى مَقْرَبَةٍ مِنَ القارِبِ . وَجَذَّفْتُ جَيْئَةً وَذَهابًا في المَكانِ الَّذي غَطَسَ فيهِ الإِشْبيليُّ . وَلَمْ أَرَ سِوَى بُقَعٍ مِنَ الدِّماءِ . أَمّا هُوَ فَقَدْ هَبَطَ مَعَ شَيْطانِ البَحْرِ إِلى القاعِ . وَكانَتْ هٰذِهِ هِيَ نِهايَةَ غاسْبَر رُويز .

عِنْدَ غُروبِ الشَّمْسِ بَسَطْتُ الشِّراعَ وَاتَّجَهْتُ نَحْوَ لاباز ، ثُمَّ فَكَّرْتُ في اللُّؤْلُؤَةِ . لَقَدْ كانَتْ في مُؤَخِّرِ القارِبِ حَيْثُ تَرَكَها الإِشْبيليُّ . وَكانَتِ الشَّيْءَ الوَحيدَ الَّذي لَمْ يُطْرَحْ في البَحْرِ .

الفَصْلُ التّاسِعَ عَشَرَ

العَوْدَةُ إِلى البَيْتِ

كانَتِ المَدينةُ نائِمَةً عِنْدَما دَخَلْتُ الخَليجَ ، وَلٰكِنْ يَبْدو أَنَّ الطُّيورَ كانَتْ تُحِسُّ بِقُرْبِ شُروقِ الشَّمْسِ .

جَذَبْتُ القارِبَ فَوْقَ الرِّمالِ ، ثُمَّ سِرْتُ في الشّارِعِ بِهُدوءٍ وَاتَّجَهْتُ نَحْوَ المُتْحَفِ . كانَ البابُ مُواربًا ، فَدَفَعْتُهُ دُونَ أَنْ يُحْدِثَ صَريرًا وَدَلَفْتُ إِلى الدّاخِلِ . لَمْ أَرَ أَحَدًا هُناكَ ، وَلٰكِنّي رَأَيْتُ إِعْلانًا كَبيرًا :

« مُكافَأَةٌ أَلْفُ بيزو لِأَيِّ فَرْدٍ يَقْبِضُ عَلى اللِّصِّ الَّذي سَرَقَ اللُّؤْلُؤَةَ . »

أَخَذْتُ وَرَقَةَ الإِعْلانِ وَوَضَعْتُها في جَيْبي ، وَأَعَدْتُ اللُّؤْلُؤَةَ إِلى مَكانِها . وَتَذَكَّرْتُ الإِشْبيليَّ ، وَتَذَكَّرْتُ شَيْطانَ البَحْرِ ، هٰذا الكائِنَ الجَميلَ وَالمُخيفَ الَّذي لَمْ يَشْهَدْهُ حَقيقَةً سِوَى اثْنَيْنِ ، أَحَدُهُما فَقَطْ لا يَزالُ حَيًّا . خَرَجْتُ إِلى شُرْفَةِ المُتْحَفِ ، وَكانَتْ تُطِلُّ عَلى المَدينَةِ ، فَرَأَيْتُ النِّساءَ في طَريقِهِنَّ لِجَلْبِ المِياهِ ، وَقَدْ حَمَلْنَ الجِرارَ عَلى رُؤُوسِهِنَّ ، وَكانَتِ النِّيرانُ مُشْتَعِلَةً في البُيوتِ لِطَهْيِ طَعامِ الإِفْطارِ .

غادَرْتُ المُتْحَفَ عائِدًا إِلى البَيْتِ ، وَقَلْبي يَنْبِضُ بِشِدَّةٍ ، وَشَعَرْتُ أَنَّني في هٰذا اليَوْمِ أَصْبَحْتُ رَجُلًا . في هٰذا اليَوْمِ فَقَطْ وَلَيْسَ في اليَوْمِ الَّذي أَصْبَحْتُ فيهِ شَريكًا لِأَبي ، وَلا في اليَوْمِ الَّذي وَجَدْتُ فيهِ لُؤْلُؤَةَ السَّماءِ ، هٰذا هُوَ اليَوْمُ الَّذي صِرْتُ فيهِ رَجُلًا .

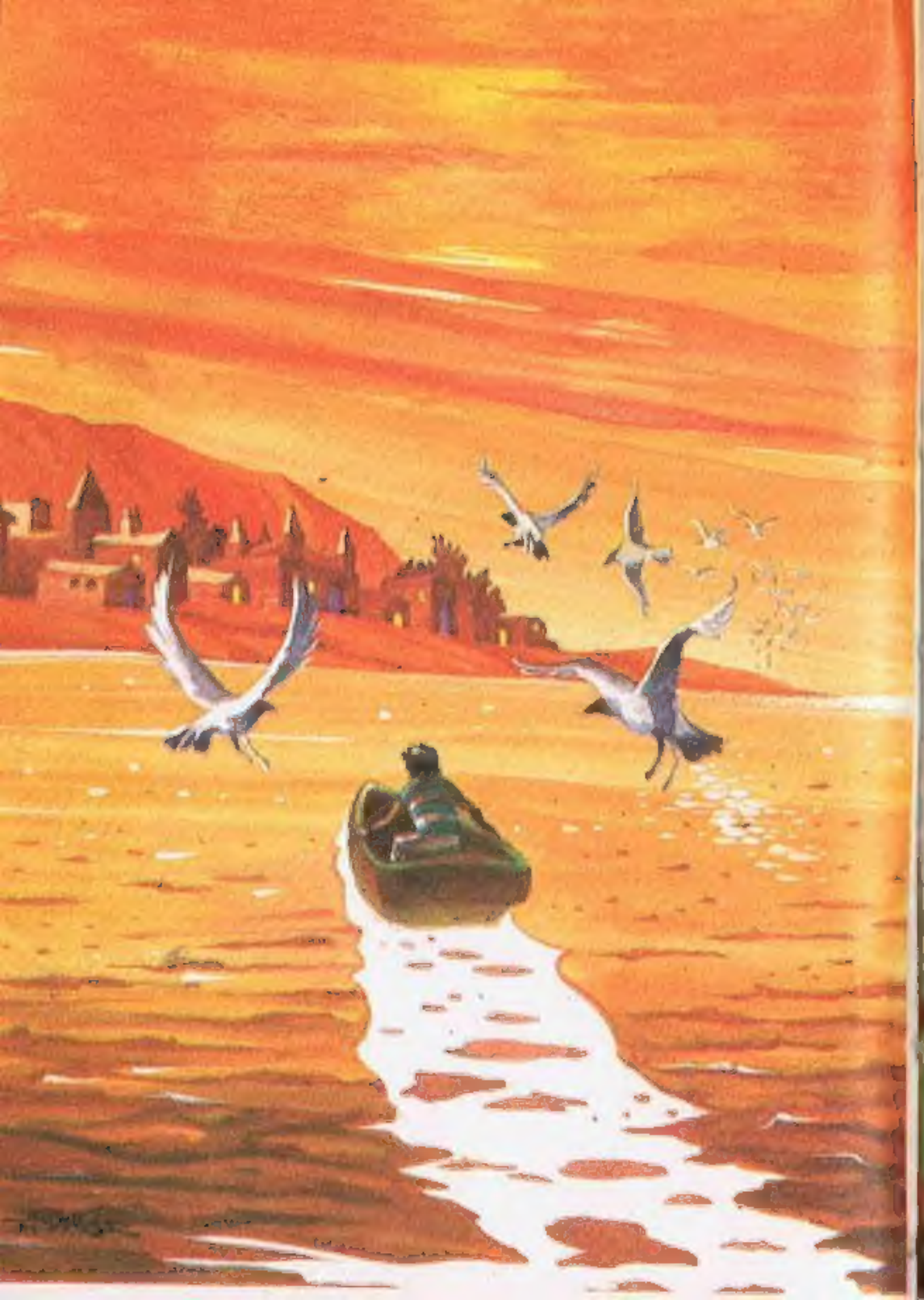

في ٱلطَّريقِ إلى ٱلبَيْتِ فَكَّرْتُ في قِصَّةٍ أَرْويها لِوالِدَتي ، فَهِيَ لَنْ تُصَدِّقَ ما حَدَثَ – تَمامًا كَما كُنْتُ لا أُصَدِّقُ قِصَّتَها ٱلَّتي رَوَتْها لي في ٱلماضي ٱلبَعيدِ عَنْ شَيْطانِ ٱلبَحْرِ !

المغامرات المثيرة

١ ــ مغامرة في الأدغال
٢ ــ مغامرة في الفضاء
٣ ــ مغامرة أسيرين
٤ ــ مغامرة في الجزيرة الخضراء
٥ ــ مغامرة على الشاطىء
٦ ــ الجاسوس الطائر
٧ ــ لصوص الطريق
٨ ــ حمد الغواص الشجاع
٩ ــ اللصان الغبيان
١٠ ــ مطاردة لصوص السيارات
١١ ــ مغامرات السندباد البحري
١٢ ــ لعبة خطرة
١٣ ــ الحشرة الذهبية وقصص أخرى
١٤ ــ اللؤلؤة السوداء
١٥ ــ سر الجزيرة

مكتبة لبنان
ساحة رياض الصلح - بيروت
رقم مرجع كمبيوتر 01 C 198 214